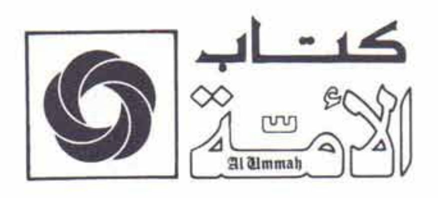


سلسلة فصلية تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر

٤٣

المنهج النبوي والتغيير الحضاري

برغوث عبد العزيز بن مبارك



سلسلة فصلية تصدر عن مركز البحوث والدراسات بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة قطر

ص . ب : ٨٩٣ ـ الدوحة ـ قطـر

من شروط النشر في السلسلة

- أن يهتم البحث بمعالجة قضايا الحياة المعاصرة ومشكلاتها ويسهم بالتحصين الثقافي والتغيير الحضاري وترشيد الصحوة في ضوء القيم الإسلامية .
- أن يتسم بالأصالة والإحاطة والموضوعية والمنهجية .
- أن يشكل إضافة جديدة وألا يكون سبق نشره .
- أن يوثق علميًّا بذكر المصادر والمراجع التي اعتمدها الباحث مع ذكر رقم الآيات القرآنية وأسماء السور وتخريج الأحاديث .
- أن يبتعد عن إثارة مواطن الخلاف المذهبي والسياسي ويؤكد على عوامل الوحدة والاتفاق .
- أن يكون البحث بخط واضح ويفضل أن يكون مكتوباً على الآلة الكاتبة وألا يزيد عن مائة صفحة (حجم فولسكاب) تقريباً .
- يفضل إرسال صورة عن البحث لأن المشروعات التي ترسل لا تعاد ولا تسترد سواء اعتمدت أم لم تعتمد .

تقدم مكافأة مالية تتناسب مع قيمة البحث العلمية

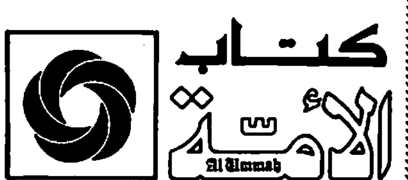
بسم الله الرحمن الرحيم

المنهج النبوي والتغيير الحضاري

الطبعة الأولى
رمضان ١٤١٥هـ
شباط (فبراير) ١٩٩٥م

١ر٢١٠
برغوث عبدالعزيز بن المبارك
المنهج النبوي والتغيير الحضاري / تاليف برغوث عبدالعزيز بن مبارك .
الدوحة : وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، ١٩٩٥م .
١٥٧ ص ، ٢١ سم. (كتاب الأمة ٤٣) .
(ايداع : ٥/١٩٩٤) .
الرقم الدولي (ردمك) : ٣ - ١٣ - ٢٣ - ٩٩٩٢١
١ - الإسلام والمجتمع . ٢ - الإسلام والحضارة .
أ . العنوان ب . السلسلة .

ما ينشر في هذه السلسلة يعبر عن رأي مؤلفيها



مركز البحوث والدراسات

هاتف : ٤٤٧٣٠٠

فاكس : ٤٤٧٠٢٢

برقيا : الأمة ـ الدوحة

ص . ب : ٨٩٣ الدوحة ـ قطر

ثمن النسخة

الأردن	٥٠٠ فلس
الإمارات	٥ دراهم
البحرين	٥٠٠ فلس
تونس	دينار واحد
السعودية	٥ ريالات
السودان	٢٥ جنيهاً
عُمان	٥٠٠ بيسة
قطر	٥ ريالات
الكويت	٥٠٠ فلس
مصر	٢ جنيه
المغرب	٨ دراهم
اليمن	١٢ ريالا

○ الأمريكتان وأوروبا وأستراليا وباقي دول آسيا وأفريقيا دولار أمريكي ونصف أو ما يعادله .

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية

٥ لسنة ١٩٩٥م

الترقيم الدولي : ٣ - ١٣ - ٢٣ - ٩٩٩٢١

قال تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾

(الجمعة)

تقديم

بقلم : عمر عبيد حسنه

الحمد لله ، الذي أنزل القرآن، مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ، ومهيمنًا عليه ، وجعله للناس شرعة ، ومنهاجًا ، واعتبر العدول عن منهجه ، والالتزام بحكمه ، عدولاً عن الحق ، ووقوعًا في الهوى والضلال ، وحذر الرسولَ ﷺ ، والسائرين على طريق الاقتداء والتاسي ، من الفتنة التي يكون بها العدول عن بعض ما أنزل الله ، بقوله :

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ ﴾

(المائدة : ٤٨ – ٤٩) ، ذلك أن العدول عن بعض المنهج ، عدولٌ عن الكل.. كما أن التعديل في بعض جوانب المنهج، هو عدول في حقيقة الأمر، وسقوط في علل التدين، التي وقعت بها الأمم الماضية، من الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه الآخر، وما لحق بها بسبب ذلك، من الخزي والسقوط في الدنيا، والعذاب الأليم في الآخرة، قال تعالى : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ... ﴾

(البقرة : ٨٥) .

ولقد اعتبر الله حال الذين جعلوا القرآن.(الشرعة والمنهاج) تفاريق وأجزاء، يؤخذ بعضها، ويترك بعض - هؤلاء الذين جعلوا القرآن عضين - كحال المقتسمين الذين سبقوهم من الأمم السابقة، فأفسدوا على الأمة منهجيتها القرآنية، وأوقعوها في الهوى والضلال، والمعاصي، والإصابات، التي تعاني الأمة من آثارها اليوم، أو التي تشكل أزمتها الحقيقية، وتتسبب فيما يقع عليها من العقوبات، ومايمارس عليها من الفتن، والمساومات من (الآخر) لإخراجها عن بعض ما أنزل الله عليها، قال تعالى:

﴿ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾(الحجر : ٩٠-٩٣) .

والصلاة والسلام على الرسول القدوة، الذي أصَّل المنهج الإلـهي، وبيَّنه، وجسَّده، في واقع الناس، في ضوء هدايات الوحي الأعلى، ومن خلال عزمات البشر، واستطاعاتهم، وتركنا على المحجة البيضاء،ليلها كنهارها، لايزيغ عنها إلا هالك، متمثلاً قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (يوسف:١٠٨) .

وقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ (الأنعام : ١٥٣)، فوضع بسنته، وسيرته، منهج الوصول إلى التمكين في الأرض، وتحقيق مهمة الاستخلاف الإنساني، والعمران البشري، في الدنيا، والفوز والنجاة في الآخرة، ومثل لسبيله هذا بخط مستقيم واضح، ودعا لاتباعه على بصيرة، ومثل للمناهج الأخرى ، من على يمينه وشماله ، بخطوط متعرجه، يقف على رأس كل منها شيطان، يغري باتباعها.

وبعــد :

فهذا كتاب الأمة الثالث والأربعون : «المنهج النبوي والتغيير الحضاري»، للأستـاذ برغـوث عبـد العـزيز بن المبارك، في سلسلة : « كتـاب الأمـة » التي يصدرها مركز البحوث والدراسات، بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، في دولة قطر، مساهمة في استرداد شخصية المسلم المعاصر، وتحقيق الوقاية الفكرية، والحصانة الثقافية، وإعادة بناء المرجعية الشرعية، وتشكيل مركز الرؤية، في ضوء هدايات ومعارف الوحي، وتجارب ومكتسبات العقل، وإعادة بناء الوعي، بالمنهج النبوي في التغيير، والتحويل الثقافي، وتبين الأسباب، التي حالت دون منهج النبوة، وحسن التعامل معه، وامتلاك القدرة على إنتاج النماذج المأمولة، التي تحقق خلود المنهج، القادرة على حمل أمانة الاستخلاف، والعمران، وإدامة البحث والنظر، في ظروف وشروط ميلاد المجتمع الأول القدوة، مجتمع خير القرون، واستيعاب جميع المراحل التي مر بها، ووسائل توفيرها، للإفادة منها في عمليات النهوض، وتجاوز الواقع، وردم فجوة التخلف، من أجل أن يستأنف المسلم رسالته، ويقوم بالدور الذي ناطه الله به، في إلحاق الرحمة بالناس، مستثمراً إمكاناته الروحية، والذهنية، والمادية كلها، ومنطلقاً من ذاتيته الخاصة، ومرجعيته الشرعية، على طريق النهوض، وتحقيق الإرادة، والإفادة من الإمكان الحضاري، وفك قيود التحكم، والارتهان الثقافي، ومعالجة أسباب التقليد الجماعي والتخاذل الفكري .

وقد تكون الحاجة اليوم، أشد من أي وقت مضى، وقد اشتدت الفتن، وكثر الغثاء والادعاء الثقافي، وشاع مناخ التضليل والضلال، وتطبيع الهزيمة، وتقطيع الرؤية الإسلامية، لإيجاد المسوغات للسقوط الحضاري ، والفلسفات لتكريس الهزائم على الأصعدة المتعددة . . . قد تكون الحاجة اليوم، أشد من أي وقت مضى، إلى اللجوء إلى المنهج النبوي ، والاحتماء والتشبث به،

والعض عليه بالنواجذ، خوفًا من الاقتلاع والضياع، ومن ثمَّ محاولة استقرائه بوعي وإحاطة، وقراءة الواقع، والحال الذي صار إليه، والتعرف على أسبابه، ومحاولة تحديد المكان والموقع المناسب، الذي يمكن أن يوضع فيه هذا الواقع، من خلال المنهج النبوي في التغيير، ومسيرة السيرة النبوية، من خلال استيعاب المراحل كلها، لتكون كل مرحلة أنموذجًا ومحل اقتداء للمرحلة التي تماثلها في واقع الأمة، ابتداءً من مرحلة الاستضعاف، والاحتفاظ بالإيمان في القلب، والاقتصار على كف اليد، وإقامة الصلاة، حتى تتوفر الإمكانات، ويحضُر الواقع، وانتهاءً بمرحلة التمكين في الأرض، والدفاع عن إنسانية الإنسان، وتحقيق حرية اختياره، والحيلولة دون افتتانه.. أو ابتداءً من مرحلة: ﴿اقرأ﴾ كمدخل وسبيل إلى التغيير، وانتهاءً بمرحلة الاكتمال والكمال، التي يشير إليها قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣).

ذلك أن المنهج النبوي في التغيير، والبناء الحضاري، وسيرة الرسول ﷺ في التعامل مع الواقع، قد استوعب، ومر بالحالات والمراحل كلها، التي يمكن أن تعرض لها المجتمعات البشرية بشكل عام، والإسلامية بشكل خاص، نهوضًا وسقوطًا، وحركة وركودًا، وامتلك الحلول والإجابات الكاملة، لأصول المشكلات الإنسانية والاجتماعية، وكيفيات التعامل معها، وإلا كيف استحق أن يكون خالدًا، وأن يكون محل الأسوة والاقتداء؟!

لذلك فمن الأهمية بمكان – ونحن بسبيل معاودة النهوض – امتلاك القدرة على الوعي بالمنهج النبوي في التغيير والبناء الحضاري، وإدراك مراحله بدقة، ومقاصده في كل مرحلة، ومرونته في التعامل مع الواقع، في ضوء تلك المقاصد، أمرًا ونهيًا، وحظرًا وإباحةً، ورخصة، وعزيمة، بحسب الظروف

والأحوال، والاستطاعات، وتوفر الأسباب، ومن ثمّ القدرة على تحقيق خلوده، وذلك بتجريده من حدود وقيود الزمان والمكان، وتوليد الرؤى، والأحكام الشرعية، والحلول النبوية، للحالات، مع مراعاة الأعمار التي يمر بها المجتمع، وتنزيل هذه الحلول على الواقع، في ضوء ظروفه، وإمكاناته، وموقعه من مسيرة المجتمع الأول وسيرته، مع الأخذ بعين الاعتبار، ان اعتماد المرحلية والتدرج لا يعني بحال من الأحوال تجزيء المنهج، وتقطيعه، بمقدار مايعني استصحاب المراحل كلها، التي مر فيها المجتمع القدوة، للوصول إلى مرحلة الاكتمال والكمال، والإدراك الكامل لأبعاد حركة النهوض الشاملة، ومستلزماتها، من خلال المرحلة والموقع، الذي يكون عليه المجتمع اليوم، لتجيء هذه المرحلة في عمرها وموقعها ومكانها مستقبلاً، لبنة في البناء الكامل المأمول.

إن العودة إلى بعض مراحل السيرة، فيما قبل مرحلة الاكتمال والكمال، للمجتمع القدوة، ومحاولة الاستضاءة بها، لحل المشكلات المشابهة، من واقع المجتمع، واستطاعته، لا تعني هنا النكوص والتراجع، بمقدار ما تعني المراجعة للواقع، وظروفه، واستطاعته، ومحاولة تحضيره، والنهوض به، في ضوء الرؤية الشاملة، لمسيرة مجتمع القدوة...

وفي ظني: ان الذين يشيعون، ويدّعون، أن أزمة الأمة المسلمة اليوم، أو أزمة العمل الإسلامي، هي أزمة منهج، هكذا بدون تحديد واضح للمصطلحات، وبيان ماهو المقصود بالمنهج، الذي نعاني من غيابه، أو ان غيابه هو سبب الأزمة، يساهمون أيضًا في الغيبوبة والالتباس.. إن هذا الادعاء، بهذه المجازفة والعمومية الشديدة، يحمل من المخاطر والبلايا والطوام، والتضليل الثقافي، والإلغاء للانتماء، والانتهاء إلى الارتماء، واستدعاء

«الآخر»، أو بشكل أصح استدعاء مناهج «الآخر»، ما لا يعلم مداه إلا الله سبحانه وتعالى، سواء صدر عن حسن نية من بعض البسطاء، الذين انتهت عقولهم إلى آذانهم، والذين يقْفون ماليس لهم به علم – وما أعتقد أن مثل هذه القضايا الشائكة محلها البسطاء – أو من بعض المكَرَة، الذين يحاولون التسلل إلى الداخل الإسلامي، من خلال التدليس، والتلبيس للمصطلحات، والتأنيس والمقاربة لمصطلحات «الآخر»، والإيهام بأن القضية قضية إبداع فكري، ضمن القيم نفسها، لتمرير طروحاتهم، بينما الأمر في الحقيقة لايخرج عن أن يكون بدعًا فكرية، غريبة عن مرجعية هذه الأمة، وبعيدة عن منهج وفهم الجيل الأول، المشهود له بالأهلية، ليكون هو وحده بفهمه ومسالكه محل الاقتداء.

وهنا قضية لا بد من تحرير القول فيها، ما أمكن، وهي أننا إذا كنا نريد بالمنهج، أنه بشكل عام هو : منهجية النظر والبحث، وعلوم الطريق الموصلة إلى الهدف، أو بتعبير آخر : أن المنهج هو طريق الوصول ، يصبح من الضروري أن نحدد، ماهي الأهداف، التي نريد الوصول إليها ابتداءً، ومن ثم، ماهي الوسائل والأدوات والمعارف المطلوبة، لتحقيق هذه الأهداف؟ مع ضرورة الانتباه إلى أهمية عدم المجافاة بين الوسائل المعتمدة، في مشروعيتها، والأهداف المرجوة .

فإن كان المنهج المقصود هو نظام مسيرة الحياة في هذه الدنيا، والأهداف هي سعادة الإنسان، وكرامته، وحياته الطيبة، في الدنيا والآخرة، ومايتطلب ذلك من الوسائل التربوية، والأوامر والنواهي، فإن أي ادعاء بأن الأزمة التي نعاني منها، أزمة منهج، يمكن أن يخرج عن الملة – والعياذ بالله تعالى – لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا

تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (المائدة: ٤٨) ، فالمقصود بالحكم بما انزل الله ، المنهج الذي شرع الله التزامه .. والحكم الذي شرعه الله هنا ، لا يخص الجانب السياسي، أو التشريعي، أو الأخلاقي، أو الاقتصادي، أو التربوي، وإنما يعني ذلك جميعه، بكل ما يتطلب المنهج من منطلقات اساسية، وأهداف مرحلية، ونهائية واضحة، ووسائل، وأوامر ونواهٍ، وقيم ومعايير ثابتة، ليست من وضع الإنسان.. وما يتطلب ايضًا من انموذج تطبيقي لهذا المنهج، أشبه مايكون بوسيلة إيضاح مُعينة على تنزيل قيم المنهج على الواقع، وتحويل فكره إلى فعل مجسَّد في حياة الناس، أو هو كالمجسمات والنماذج، والصور، التي تبين الشكل، الذي لابد أن تنتهي إليه الوسائل.

وهنا نقول: إن الأزمة التي نعاني منها، ليست ازمة منهج، وإنما أزمة فهم للمنهج، وأزمة تعامل مع المنهج.. ازمة تنزيل للمنهج على الواقع، وتقويمه به.. فالإسلام بمصدريه: الكتاب والسنة، والسيرة كتنزيل عملي وانموذج، هو المنهج، وأن المعايرة للواقع، والتحديد للخلل، إنما يكون في ضوء الكتاب، والسنة، والسيرة، وان اي معاودة للنهوض، واستئناف السير، مرهون بتقويم الواقع، بمنهج الكتاب، والسنة، والسيرة.. فالإسلام هو المنهج، وهو الصراط، وهو السبيل، وهو الحجة، وهو موثق الاستمساك والتلقي، والمعايرة، واكتشاف الخلل، وتحديد الأزمة، أو هو بكلمة جامعة: الدين، الذي يحكم تصرفات الإنسان، أو يدين له الإنسان بتصرفاته، ونشاطه، لان اي عدول عن هذا، أو تعديل له – والتعديل هو عدول في الحقيقة، عن بعض الجوانب، كما أسلفنا – إنما يعني بالضرورة استدعاء مناهج ونظم معرفية، ومسالك ومعايير «الآخر»، وليس من «آخر» الآن، سوى المنهج الغربي، بوسائله، وادواته،

ونظامه المعرفي .

إن اعتماد المنهج الغربي، في النظر، والتحليل، والدراسة، سوف يؤدي بالضرورة أيضًا، إلى أن يصبح الإسلام، كتابًا، وسنة، وسيرة، هو مادة التحليل، ومحل وموضوع النظر، وليس منهج النظر، ومعيار التقويم .. ولا يغيب عنا هنا التذكير بالأبجديات الخاطئة في قراءة الإسلام، من ماركسية، ورأسمالية ، وعلمانية، وكل المقاربات التي تتم وتملأ الساحة الثقافية اليوم ، حيث باتت، مصطلحات «الآخر» هي أدوات، ومحددات الفهم، والقسمات الفكرية، لأي باحث.. وهنا يبرز التناقض والضياع، وتزييف الوعي، أو التدليس، عن وعي.

وحتى لو سلمنا بحسن النية – ومانظن ذلك حاصلاً في هذه المواطن الخطيرة – فإن فصل الأدوات المنهجية عن نظامها المعرفي، ومرجعيتها الفكرية، ومضمونها القيمي، هو خلل منهجي، وتفتيت للنظرية، وتجزيء لها، ومحاولة نقلها للتشغيل، والتعامل مع نسق آخر.

ذلك أن الأدوات المستخدمة، وعلوم طريق الوصول، والتبصير بما يمكن أن يتحصل من إصابات في الطريق، وكيفية الوقاية منها، هو جزء منبثق من المنطلقات، والقيم، والنظرة الكلية الشمولية للأهداف، وليست جزءًا منفصلاً محايدًا، قائمًا بذاته.

ونخشى أن نقول: إن الذين يدَّعون بأن الأزمة عندنا، هي أزمة منهج، متجاوزين في ذلك الصراط، والشرعة، والمنهاج، والسبيل، والدين، الذي أنتج هذه الحضارة، وتلك العلوم، سوف يقودهم سعيهم إلى تبني واحتضان المنهج الغربي، في النظر إلى القيم، والأفكار، والمجتمعات الإسلامية، وحتى

إلى عطاء الكتاب والسنة والسيرة، واعتبارها كسائر المواد التراثية الأخرى، حتى لو أعلنوا خلاف ذلك .

وهنا تحفظ لا بد من التوقف عنده قليلاً، وهو ان التراث عند من يعرّفه بأنه اجتهاد ،وكسب بشري، خارج دائرة الكتاب والسنة والسيرة، قد يغيب عنه، انه أثناء فحصه واختباره، وتقويمه، ومحاكمته، لا بد من استخدام المنهج، الذي تم إنتاج هذا التراث في ضوئه، ومن ثم بيان فساد أو صواب التنزيل والتطبيق لهذا المنهج في الواقع، لأن من العقم المنهجي، والفساد الفكري، محاكمة واقع حضارة وتراثها، أو إنتاج حضارة، بأصول ومناهج وأدوات معرفية لحضارة أخرى مغايرة، في منهجها، وقيمها، ومنطلقاتها، وأهدافها، ووسائلها.

وقد يكون احد الوجوه الخطيرة، للأزمة الفكرية، التي نعاني منها، بسبب عجزنا عن التعامل مع المنهج الذي شرعه الله، وبينته السنة، ونزلته، أو طبقته السيرة، هو الادعاء بضرورة الاقتصار على النص القرآني، في التقويم، والمنهجية، والمرجعية، والمعايرة، والعدول عن السنة والسيرة، أو عن المنهج النبوي في البيان، والتطبيق، والتنزيل على الواقع، او تجاوزهما عمليًا، بحجة ظنية السنة، وضعف المرويات، من وجه، أو بأن التنزيل على الواقع في فترة السيرة، كان باجتهاد بشري، محكوم بظروف الزمان والمكان والحاجات، لا علاقة له بالنبوة والوحي، وأن الرسول النبيﷺ الذي يبلّغ رسالة ربه (القرآن)، ويبيّن كيفية عبادته، غير الرسول الحاكم (!!) فالمهمة الأولى هو مؤيد فيها بالوحي، ومسدد به،أما الثانية (السنة) فلا وحي فيها، وإنما هو اجتهاد جاء مناسبًا لعصر معين، ليس بالضرورة، ان يكون صالحًا لكل زمان ومكان، وأن إلغاءه، او تجاوزه، لاعلاقة له بالدين، أو التدين (!!) وهذه

بدعة في التفكير، خارجة عما أجمع عليه المسلمون في عصورهم المتطاولة، ووسيلة ماكرة لعلمنة الإسلام، ومحاصرة المنهج القرآني، وإقصائه، بمحاولة إلغاء سنة الرسول ﷺ، في التطبيق والبيان، لكنها اليوم باسم الإسلام، وهي لا تقل خطرًا وأثرًا عن الابتداع في العبادة.. إنها مروق من الدين، كما يمرق السهم من الرقبة .

أما القول : بأن نص القرآن قطعي، وإلهي، ومطلق، والادعاء بأن نص السنة في معظمه ظني، وبشري، ونسبي، يمكن رده.. فهو ادعاء ساقط، قرآنيًا، ومنهجيًا، وواقعيًا، وقد فند العلماء ذلك، ولم يبقوا فيه استزادة لمستزيد، ذلك أن النص القرآني نفسه، يعتمد السنة، مصدرًا للتشريع، والمعرفة، والأحكام ابتداءًا.

أما ظنية السنّة، من الناحية المنهجية، فإن السنة محكومة بضوابط القرآن الكريم،قطعي الثبوت، بحيث لا يجوز لها أن تخرج على نصوصه، أو تعارض مقاصده، أو مرجعيته، حتى في البيان، الذي هو مهمتها، وذلك بنص القرآن، إلى درجة اعتبر معها العلماء، أن من علامات الحديث الموضوع، معارضته لصريح القرآن الكريم. فالسنة، على الرغم من ورود معظمها عن طريق خبر الآحاد ، إلا أنها موثّقة بضوابط ومرجعية القرآن، قطعي الثبوت .

إضافة إلى أن هذه النصوص الظنية الدلالة، تجسدت، وتمثلت في واقع أمة، كاملة، مشهود لها بالخيرية، في مرحلة السيرة، والخلافة الراشدة، الأمر الذي يمنحها التواتر العملي، أو السكوتي – إن صح التعبير – وهذا لم يتوفر لنص آخر، غير نصوص السنة، التي تضمنت المنهج النبوي، اللهم عدا النص القرآني، الذي ثبت بالتواتر، الذي يفيد القطع، وعلم اليقين، وهذا التواتر من حيث المنهجية العلمية، يمنح السنة السياج الواقي، ويجعل الظنية فيها،

معتمدة في التشريع، والمعرفة، والأحكام، الأمر الذي لم يعان منه جيل الصحابة، حيث لم تكن هذه الإشكالية مطروحة أصلاً.

ولا بد أن نعترف أن بعضنا يعيش اليوم مرحلة الأرض الأجادب، لكن بعضنا الآخر – مع الأسف – يعيش مرحلة الأرض القيعان، التي أخبر عنها الرسول ﷺ بقوله: «**مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل غيث أصاب أرضًا، فكانت منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس، فشربوا، وسقوا، وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لاتمسك ماءًا ولاتنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعمل.. ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا...**» (متفق عليه).. حيث تتقدم عندنا وسائل الحفظ والنقل لقيم الكتاب والسنة، لكن يصاحبنا العجز عن أن نستنبت منها الكلأ والعشب الكثير، إلى جانب حفظ الماء، فنكون من الطائفة الأولى . وقد يكون من المفيد هنا، أن نورد ما روي عن عثمان وعبد الله بن مسعود وأُبيٍّ رضي الله عنهم، من أن رسول الله ﷺ كان يقرئهم العشر، فلا يتجاوزها إلى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل، فتعلموا العلم والعمل جميعًا (صحيح سنن أبي داود)، وما روي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أنه قال: كان الفاضل من أصحاب رسول الله ﷺ في صدر هذه الأمة، لا يحفظ من القرآن إلا سورة أو نحوها، ورزقوا العمل بالقرآن، وأن آخر هذه الأمة، يقرأون القرآن، منهم الصبي والأعمى ولا يرزقون العمل به (القرطبي ١ / ٤٠).

وحتى يكون الكلام واضحًا ، لا بد أن نبيِّن أن العجز المقصود هنا، هو عدم القدرة على الإفادة من المنهج النبوي، في مجال التغيير والبناء الحضاري،

وليس المقصود مجال الفقه التشريعي، حيث خلف لنا العلماء والمجتهدون ثروة فقهية لا نظير لها، من الناحية القانونية، والثقافية، والتشريعية، والقضائية.

لذلك نقول: إن الأزمة الحقيقية التي نعاني منها، أو الأزمة الفكرية، هي أزمة فهم عملي، وأزمة تعامل، مع قيم الكتاب والسنة، وتحويلها إلى برامج، من خلال مسيرة السيرة النبوية.. أو بكلمة مختصرة: ازمة تعامل مع معرفة الوحي بشكل عام، أو استيعاب المنهج النبوي، في البناء والتغيير، سواء في ذلك من ينكرون وجود المنهج، في الكتاب والسنة ابتداءاً ، ويعتبرون أن الأزمة اليوم، ازمة منهج، أو من يسلمون بوجود المنهج، إلا أنهم عاجزون عن وضع مناهج فهم، وتعامل، من خلال القيم نفسها، ونسقها المعرفي، وتراثها الممتد، الذي يشكل عقلها الجماعي، وشخصيتها الحضارية التاريخية.. لذلك نراهم يتطاولون على التراث، ويحكموا عليه، من خلال تشكيلهم الثقافي، بعيداً عن القيم المعيارية، التي انتجته، وإنما من خلال قيم حضارات، ومناهج معرفية، وعقائد اخرى، لذلك لا يخرج عملهم عن طحن الماء، على الرغم من الجهد المبذول، والمال المهدور، دون أن تكون عندهم القدرة على إيجاد البديل، اي بديل، وقد يضطرهم سعيهم في النهاية، بسبب فقر إنتاجهم – كما أسلفنا – إلى احتضان أشخاص، قد يفتقرون لأدنى حد من المرجعيات الشرعية، سواء في دراستهم الأكاديمية، أو كسبهم الثقافي ، أو في مسالكهم، وإنما هم متخصصون، بالمنهج الغربي، ونظامه المعرفي، وادواته البحثية، ويحاولون اليوم أن يجعلوا من الإسلام، والنصوص الإسلامية، في الكتاب والسنة، محلاً للتحليل، والدراسة، وفق المناهج، والأنظمة المعرفية، الخارجة عن نسقه، وقد يلحقون باعمالهم اي شعار إسلامي، لتمريرها وتسويقها في عالم المسلمين.. إنهم يجرأون على

الفتوى، في المعرفة، ويبتدعون في الفكر، وقد لايحسنون معرفة فرائض الوضوء، وأحكام الحلال والحرام، التي يجب أن تعرف من الدين بالضرورة، وقد لايستطيع الكثير منهم أن يقيم لسانه بآية، أو حديث، وغاية عملهم اقتطاع بعض النصوص الإسلامية، وإعمال أدوات المناهج الغربية في فهمها، وإعادة تفصيلها.. فكيف والحال هذه ستكون النواتج الفكرية والثقافية، خاصة إذا علمنا أن الأدوات المعرفية، ووسائل البحث، ومناهج الفهم والتفكير، ليست آليات محايدة، وإنما هي ثمرة لخلفيات عقائدية، ومرجعيات حضارية، لا تخرج عن أن تكون جزءاً منها ؟

إنها المرحلة الجديدة للاستلاب الحضاري، والاختراق الثقافي، التي يفترض لها أن تكون أكثر قبولاً في عالم المسلمين، بعد أن سقطت الطروحات السابقة للإسلام، المعنونة بالمصطلحات الغربية أو الشرقية، لإيجاد غطاء تراثي لتسللها إلى الفكر الإسلامي.

ونخشى أن نقول: إن هذا المسعى اليوم يعتبر من أخطر البدع الفكرية الخفية، التي يجب التنبه لها، والتحصين منها، لأنها لا تقل خطراً عن البدع في العبادات، التي نهض فقهاء السلف والأتّباع، لمحاصرتها والتحصين منها، وهزيمتها بالسنة.

هذه البدع الفكرية، التي دخلت علينا باسم وضع الحلول لأزماتنا ومشكلاتنا، وحاولت اصطيادنا في حالة المعاناة، نرى أنها خلفت لنا تراكم الأزمات، بدل أن تضع الحلول.. وقد يكون المطلوب اليوم: أن تصبح مواجهتها من الأولويات، وهزيمتها إنما تكون بوعي المنهج النبوي، والتحصن بمعرفة الوحي، في الكتاب والسنة، والاجتهاد في إبداع الأدوات المعرفية، في إطار النسق الإسلامي، وتصوراته عن الحياة، ومرجعيته الشرعية.

وقد تكون الإشكالية الحقيقية، في النظر للمنهج النبوي، في التغيير والبناء الحضاري، تكمن في استيعاب مسيرة هذا المنهج، بمراحله المختلفة، ومحطاته الكبرى، والإفادة منه في تحديد وفهم الواقع، ووضعه في الموقع المناسب من هذه المسيرة، وامتلاك الفقه والقدرة، في كل مرحلة، على ضبط النسب، وإعادة ترتيب الأولويات، في ضوء الحال، وتطور المراحل، واستصحاب المقاصد، الأمر الذي يتطلب هضم الجزئيات في شعب المعرفة المختلفة، وإعادة تجنيسها، كمعطيات للمنهج النبوي المعرفي، في كل مرحلة.

نعود إلى القول: بأن المنهج النبوي في التغيير، والبناء الحضاري، إذا لم يُدرك بمراحله وأبعاده، ويميِّز بين ثوابته، ومتغيراته، ومراحله، وتدرك الظروف والشروط، التي توفرت لكل مرحلة، يمكن أن ينقلبَ إلى معوق، بسبب سوء الفهم، ومن ثم سوء التطبيق، بدل أن يكون دافعًا للنهوض.. لذلك فالأمر لايجوز أن يبقى خاضعًا لرؤية فردية، تدّعي الإحاطة بكل شعب المعرفة، وإنما لابد له من دراسات متخصصة، بشعب المعرفة المتنوعة، شريطة أن تكون متحصنة بالمرجعية الشرعية الكافية، للتمييز بين ماهو من الوسائل، وماهو من الأهداف، وماهو من المبادئ، وماهو من البرامج، وماهو من القيم المعيارية، وماهو من الاجتهاد الخاضع للتقويم، لتشكيل رؤية جماعية لكل عصر، بحسب مشكلاته وظروفه، وإمكاناته، وقضاياه، وموقعه من مسيرة النبوة.

وقد يكون الكثير من مشكلاتنا الفكرية والمنهجية والنهوضية - إن صح التعبير - نابعًا من وجود متخصصين بشعب المعرفة، لكنهم يفتقدون المرجعية الشرعية، أو يفتقدون لمعرفة الوحي بشكل أعم، سواءًا منهم من تخصصوا في الغرب، أو من تخرجوا على أيديهم في مدارس ومعاهد وجامعات العالم الإسلامي، المرتهنة للنظام المعرفي الغربي في المرجع، والمنهج، والكتاب،

والمدرس، أو من هم من المتحمسين للقضيـة الإسلاميـة، بعيداً عن أي معرفـة أو تخصص.

والمجتمع الإسلامي الأول، هو مجتمع الأنموذج، ومعيار الاقتداء العملي، ليس في مرحلة الكمال والاكتمال فقط، وإنما في المراحل كلها التي مر بها، فكل مرحلة تعتبر قدوة وأنموذجًا لما يشابهها ويقابلها من الأحوال التي يعيشها ويتقلب فيها المجتمع المسلم.. فالمجتمع الأول بالنسبة للمسلم، يشكل المرجعية التطبيقية.. كما أن القيم في الكتاب والسنة، تشكل المرجعية الشرعية والفكرية، وقد تحقق له ذلك دون غيره، بسبب حراسة الوحي، والرؤية الراشدية، بعد توقف الوحي، المشهود لها من الموحى إليه ﷺ، الذي اعتمدها في المرجعية والاقتداء فقال: «...**فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، وتمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ**» (رواه أحمد).

وهنا قضية لابد من الإشارة إليها في الحقيقة: وهي أن المجتمع الأول، مجتمع القدوة، والمثال، والأنموذج، والمرجعية، ليس هو نهاية المطاف للحياة الإسلامية، إنما هو نهاية المطاف للبناء الأنموذجي، إذ أن المجتمعات الإسلامية، الممتدة تاريخيًا، كما هو الواقع، والتاريخ، والسنن الاجتماعية، سوف تمر بسقوط، ونهوض، وقوة، وضعف، ومرض، وصحة، بحسب أقدار التدين المتفاوتة، فهي ليست نسخة مكررة عن المجتمع الأول، مهما حاولت المقاربة والتاسي، ولكنها لا تخرج في كل حالاتها، التي تمر بها، عن المشابهة، مع مجتمع القدوة، في المراحل التي مر بها.

وقد يكون من المفيد التأكيد هنا، أننا مهما حاولنا الاقتراب من مجتمع القدوة، تبقى لمجتمع القدوة الذي ربي على عين النبوة، خصوصية في كونه قدوة دون سائر الحالات المماثلة الممتدة على طول التاريخ الإسلامي، فهي

تجارب تفيد العبرة، ولا يمكن أن تتحول إلى أنموذج أو مصدر للتشريع والتلقي.

والفقه المطلوب اليوم : كيف يشكل المنهج النبوي ، والرؤية الراشدية - قيماً وبرامج، فكراً وفعلاً - بمراحلها المتنوعة، مرجعية، وقدوة للمجتمعات الإسلامية ، ضمن الحالات التي تمر بها؟ وكيف يمكن أن يتحقق الاقتداء والإفادة، من المنهج؟ هذه هي القضية المطلوبة بشدة، الغائبة غياباً مذهلاً .

ونحن عندما ندعو لاستيعاب المنهج النبوي في التغيير والبناء الحضاري، واستيعاب الواقع، ومن ثمّ وضع الواقع في مرحلته المناسبة من مسيرة النبوة، أو من المنهج النبوي، حتى نحقق الاقتداء في عملية التغيير، وكيفية التعامل مع الواقع، وتغييره، والارتقاء به، أو تقويمه بمنهج النبوة، في ضوء عطاء المنهج نفسه، أو عطاء المرحلة المشابهة لواقع الحال، لا نعني بذلك عملية التقطيع، والانتقاء الفقهي، كما أننا لا نعني إيجاد المسوغات الشرعية، أو التستر على هذا الواقع بفقه حيل، أو فقه مخارج، وإنما الذي نريد أن نوضحه: أن القضية قضية اجتهاد فكري، أو رؤية منهجية في كيفية إعادة البناء، في ضوء المنهج النبوي، ترتكز إلى فقه المقاصد، الذي كان محور التغيير في كل مرحلة، ومرتكز ومنطلق آلياته، ووسائله.. لذلك جاء تأكيدنا باستمرار، ومهما كانت مواصفات وشروط المرحلة، على ضرورة استصحاب الرؤية الشاملة.

وأعتقد أن الجهود، التي بذلت لحماية السنة، والسيرة وحفظها، ومناهج وضوابط الحفظ، والنقل الثقافي، ومعايير الجرح، والتعديل، لم تتوفر بعد القرآن الكريم، لأي نص تاريخي، أو وثائقي، أو ديني على الإطلاق، ولعل هذا من لوازم وخصائص الخلود .. إن هذه الجهود العلمية العظيمة التي توفرت لحماية بيان القرآن، وكيفيات التعامل معه، فهماً وتنزيلاً على الواقع،

والتي تحققت من خلال عزمات البشر، الذين يمثلون أوعية الحفظ وأدواته، جاءت مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ ﴾ (القيامة : ١٧-١٩).

والحقيقة التي قد يكون ذكرها هنا من الأهمية بمكان، أنه اثناء التعامل مع المنهج النبوي، لابد من استصحاب الرؤية الشاملة للمنهج، حتى ولو كان التنزيل، والتطبيق لبعضه، بحسب النوازل، وظروف الحال، والاستطاعات، التي تقتضي التركيز على بعض الجوانب في مرحلة معينة، لمعالجة الخلل، دون الجوانب الأخرى.

ذلك ان غياب الرؤية الشاملة للمنهج النبوي، وعدم فقه مقاصد التعامل مع الحالات المتنوعة، من الواقع، واسباب التركيز عليها، ادى ببعض المفكرين إلى اختلال في شمولية الرؤية، وضبط النسب، وبروز فرق خارجة، ونتوءات فكرية، لا تتفق مع توازن وشمولية المنهج النبوي.. أخذت بعض الجزئيات وضخمتها، وحاولت المرابطة من ورائها، وتعميمها على المنهج كله، فاضطربت الأولويات، واهتزت النسب، وظهرت الثنائيات المتناقضة، والتعسف في التفسير والتأويل المذهبي، لا المنهجي، وأصبحت القواعد والأصول المذهبية، كلامية كانت أو فقهية، هي المعيار لتفسير النص والتحكم بمقاصده، وهو ما لم يعرفه تنزيل الإسلام الأنموذجي في خير القرون .

ولا شك عندي أن عملية التنزيل للمنهج النبوي على الواقع، أو الفقه التطبيقي، وتحويل القيم والمبادئ، إلى برامج، إذا لم تترافق بالرؤية الشاملة، والضوابط الصارمة، واليقظة المستمرة، قد يؤدي إلى لون من التكيف مع الواقع، دون القدرة على تكييفه، وفق القيم، بسبب الإلف له، والقبول به، نتيجة للتوارث الاجتماعي، ومن ثمّ الدفاع عنه، واعتماده كمقياس

للمعايرة.. أو بتعبير آخر: نتيجة لإلف الواقع وحالة الركود، التي يفرضها، وسهولة التعامل معه، يصبح تقليداً يصعب تغييره، ومن ثم يعتمد هذا التقليد، أو هذه التقاليد، لتصبح قيماً، ومعايير، تحل محل المنهج، والقيم، والتعاليم.. وبدل ان تُقوِّم التقاليدُ بالقيم، والتعاليم، وتكون التقاليد هي مادة البحث، والتحليل، تصبح هي معايير البحث، والتحليل، فيصاب المجتمع بالركود والاستنقاع الحضاري، ويصل إلى مرحلة ذهاب العلم، وإن بقيت مصادره التي أخبر عنها الرسول ﷺ .. فعن الإمام أحمد رحمه الله، قال: ذكر النبي ﷺ شيئاً، فقال: «**وذاك عند ذهاب العلم**».. قلنا: يا رسول الله، كيف يذهب العلم، ونحن قرأنا القرآن، ونقرئه أبناءنا، وأبناؤنا يقرئونه أبناءهم؟ فقال: «**ثكلتك أمك يا ابن لبيد، إن كنت لأراك من أفقه رجل في المدينة، أوليست هذه اليهود والنصارىٰ بأيديهم التوراة والإنجيل، ولا ينتفعون مما فيها بشيء؟!**» (الحديث رواه أحمد في مسنده، وابن ماجه في سننه، باب ما جاء في ذهاب العلم، وقال: هذا حديث حسن غريب).

لذلك، وحتى يحُول المنهج النبوي في التغيير والبناء الحضاري، دون هذا التوطين للتقاليد، بسبب التوارث الاجتماعي – كما أسلفنا – شرع الدورات التجديدية، التي اعتمدها كحراسات لسلامة المنهج واستمراره، والتي تعني بعث الحياة للتعاليم والقيم من جديد، وإعادة تصويب المعادلة الاجتماعية.

فالتجديد هو العودة إلى الينابيع الأولى، وإعادة التقويم بها، وبذلك يتحقق الحفظ والاستمرار، وديمومة العطاء، للمنهج النبوي، أو لمعرفة الوحي، بشكل أعم، ليصبح منهج النبوة، أو معرفة الوحي بشكل أعم، هي الإطار المرجعي، والضابط المنهجي، والمعيار للمراجعة المستمرة، وإعادة تقويم الواقع، قبل ان

ينغلق على تقاليده، التي يكرسها التوارث الاجتماعي، لذلك قال الرسول ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة، من يجدد لها دينها» (رواه أبو داود في الملاحم).

لقد جُعل التجديد تكليفًا، ولم يقتصر على أن يكون إخبارًا.. والتجديد - الذي هو في الحقيقة تقويم للواقع، وتغيير له، ومحاولة للعودة به إلى الينابيع الأولى، بعد إدراك هذا الواقع في ضوء المنهج النبوي للتغيير، أو بكلمة مختصرة: هو النظر في الواقع، وتقويمه من خلال المنهج النبوي، والنظر إلى المنهج النبوي، وكيفيات التزامه، والإفادة منه، من خلال الواقع - هو لازم من لوازم الخاتمية، حيث توقف التصويب من السماء، فلا بد من ممارسة عمليات التصويب والتقويم للواقع، في ضوء مرجعية قيم السماء وبيانها النبوي.

ولعلي أرى أن في تسمية منهج الرسول ﷺ في التغيير والبناء الحضاري، بمصطلح السنة، بعض ملامح الخلود، والتجرد عن ملابسات الزمان والمكان، ذلك أن السنة هي: القانون المطرد الممتد، الذي لايقبل التحويل، ولا التبديل. فهي في مجال الأنفس كالقانون الطبيعي الكوني، في اطراده وثباته، في مجال الآفاق، وإن كان محل الاستشهاد على ثبات السنن واطرادها، غالبًا ماينصرف إلى السنن الكونية الآفاقية، لسهولة إدراكها، ووقوعها تحت الحواس، وفي متناولها، ولأن الزمن المطلوب لاستيعاب اطردها، وإدراك نتائجها، هو في مقدور الإنسان، وضمن عمره المفترض، أما السنن النفسية والاجتماعية، والتعرف على عواقبها، فأمر بطيء ومديد، إلى درجة قد يكون عمر جيل كله، مقدمة لها، إضافة إلى انه قد تحول بعض العوائق، أو تغيب بعض الشروط، فتختل النتائج أو تتخلف، فيتوهم الإنسان عدم الاطراد،

لذلك غالبًا ما يتحدىٰ القرآن في مجال السنن النفسية والاجتماعية ، بالعواقب ، التي هي آكد من النتائج عمليًا .

فإذا سلمنا، بأن السنة النبوية، هي قانون مطرد في التغيير الاجتماعي، والبناء الحضاري، وأن الاطراد سمة لازمة لها، كلما توفرت الظروف والشروط، وانتفت العوائق، وأن نهوض المجتمع الإسلامي من سقوطه اليوم، مرهون باستعادة الأنموذج، القدوة، والمنهج في التغيير، وأن توفير الظروف والشروط التي توفرت لميلاد المجتمع الأول ، أساس لمعاودة الإنتاج، أدركنا مغزى قولة الإمام مالك رحمه الله : لايصلح آخر هذه الأمة، إلا بما صلح به أولها .

ولعل من الأمور الأساسية التي لا بد من التنبه لها، والتذكير بها هنا، أن منهج الرسول القدوة ﷺ في البناء والتغيير الحضاري، هو منهج اللبنة والتدرج ،وتحضير المحل، والأخذ بيد الناس إلى تحقيق المقاصد الإسلامية، وتقويم سلوكهم بشرع الله، شيئًا فشيئًا، حتى وصل بهم، إلى درجة الاكتمال والكمال، في بناء المجتمع الأنموذج. . وهذا المنهج لم يقتصر على مرحلة النبوة الخاتمة، وإنما هو منهج النبوة في التاريخ الإنساني، ووسيلة الأنبياء جميعًا، حتى إن النبوة الخاتمة بكل عطائها، ومقوماتها، واهدافها ومنطلقاتها، لم تخرج عن ان تكون لبنة، في البناء النبوي الممتد، مع رحلة الإنسان على الارض، وقد المح إلى هذا واكده الرسولﷺ بقوله: **« مَثَلي ومثلُ الأنبياء من قبلي، كمَثَل رجلٍ بنى بنيانًا ، فأحسنه وأجمله ، إلاَّ موضع لبنةٍ من زاويةٍ من زواياه، فجعل النّاسُ يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون : هلاَّ وُضِعَت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا اللبنةُ، وأنا خاتم النبيين»** (رواه مسلم) .

حتى إننا لنجد في القرآن الكريم، الذي يمثل اللبنة الأخيرة، أو المنهج

الأخير للنبوة، الذي انتهت إليه النبوات، مساحة كبيرة، لدعوة الأنبياء، وقصصهم مع أقوامهم، وكيفيات تعاملهم مع المجتمعات، وخلاصة التجارب التاريخية، التي صدقها الوحي، وتحققت من خلال سنن الحياة الاجتماعية والنفسية، والتي تشكل رصيداً في بناء مرحلة النبوة الخاتمة .

لذلك بالإمكان القول: إن الصورة الأخيرة التي انتهت إليها النبوة، لاتخص فترة النبوة الخاتمة، ولا تقتصر عليها من الناحية الزمانية، والمكانية، والحضارية، والثقافية، وإنما هي في الحقيقة ثمرة النبوة التاريخية، بكل بنائها وعطائها ، وإن النبوة الخاتمة ، هي لبنة في هذا البناء المتكامل الكامل ، لذلك فقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ ﴾ (آل عمران: ١٩) إنما يعني من الوجوه كلها، أن الإسلام هو العنوان، والسمة، والتعريف، لهذا البناء النبوي التاريخي الكامل المتكامل، وإن انتهت تسميته إلى النبوة الخاتمة، وأصبح علماً عليها .

لذلك فالإسلام الذي جاء به محمد ﷺ، هو ملة إبراهيم، ودين موسىٰ، وعيسىٰ ، والأنبياء من قبل ، قال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ ... ﴾ (الشورى: ١٣) .. وأن اي صدق مع منهج النبوة التاريخي، يقتضي الإيمان به، وأن الدعوة إلى الإبراهيمية، ووحدة الأديان، خارج نطاق الإسلام، الذي حقق وحدة الأديان – إضافة إلى أنها تشويه للتكامل والكمال، وحفريات تاريخية لا طائل من ورائها، إلا المزيد من التضليل – هي نكوص، وانتكاس، وتراجع على طريق دارسة.

وكذلك نرى أن اليوم الذي نزل فيه قوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ

دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (المائدة:٣) ، إنما كان ذلك الاصطلاح دليلاً على اكتمال البناء، الذي تعتبر النبوة الخاتمة، تسديداً وتصويباً لنقصه، حتى بلغ الكمال.. فالخطاب من كل الوجوه، خطاب للبشرية جميعاً، ولأبناء الأديان السابقة، التي انتهت نبواتهم إلى الصورة الأخيرة، إلى الإسلام الشامل، ذي العمق، والبعد التاريخي، والبعد المستقبلي معاً.. فالإسلام الذي نزل على محمد ﷺ ليس مقطوعاً عن الماضي، ولا مبتوراً من سياقه، وإنما استوعب الماضي، في بناء الحاضر، قال تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ (الحج:٧٨) كما أحسن بناء الحاضر، وكماله، في ضوء عطاء النبوة التاريخي، ليصبح الإسلام بناء المستقبل الخالد، ومنهجه الدائم، الذي اكتمل، وكمل علي يدي محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، وأصبح في مأمن من النقص والانهدام، قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ (المائدة : ٣) .

والذي نراه هنا أن منهج اللبنة ليس مقتصراً على بناء الأنموذج، وإنما هو منهج كل بناء، أو إعادة بناء.. وكل لبنة من هذه اللبنات، تشكل مرحلة للاقتداء بما يماثلها، شريطة استصحاب صورة البناء الكامل، التي لابد أن تشكل اللبنة مرحلة للانتهاء إليها.

وقضية أخرى، في إطار منهج اللبنة، يمكن أن نلمحها في سنة الرسول ﷺ، وطريقته في التغيير والبناء الحضاري، وهي أنه بالرغم من الرصيد التاريخي لدعوة الأنبياء مع أقوامهم، والخلاصات التي انتهت إلى النبوة الخاتمة، وساهمت في بنائها وعطائها، فإن دعوة الرسول ﷺ ومنهجه في التغيير والبناء، استغرق ثلاثة وعشرين عاماً، أي استغرق الزمن المطلوب لبناء

جيـل كامل، على رأي علماء الاجتمـاع، بدءاً من قولـه تعـالى : ﴿اقرأ﴾ – ولا نقـصـد بالقراءة هنا: تعلم الأبجدية فقط، وهي مقصودة بلا شك، كمفتاح للعلم، وطريق للدين الجديد الخاتم، ووسيلة للتغيير والبناء الحضاري، وإنما نقصد القراءة بابجدية إسلامية، ذات منهجية خاصة بها.. فليس كل قارئ بالأبجدية، قادراً عليها، إذا افتقد الإيمان الذي يعتبر المؤشر الصحيح لتوجيه ابجدية الإنسان، وربطها بغاياتها.. إنها القراءة باسم الله الخالق، القراءة باسم الرب الأكرم.. إنها قراءة جديدة متميزة، عن كل القراءات القائمة، والأبجديات المعروفة – وانتهاءاً، بالوصول إلى مرحلة الاكتمال والكمال، التي اوصلت البناء إلى غايته، والقراءة إلى هدفها، بقوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (المائدة : ٣).

ومن الأمور الأساسية التي قد يكون من المفيد التوقف عندها قليلاً، ونحن نحاول، تحديد بعض الملامح، لمنهج النبوة الخاتمة، في التغيير والبناء الحضاري: قضية بشرية الرسول ﷺ وخضوعه في حمله، وولادته، ورضاعه، وشبابه، وهرمه، ومرضه، ووفاته عليه الصلاة والسلام، للسنن الفطرية، والقوانين الطبيعية، التي يخضع لها سائر البشر. فلقد كان حمله طبيعياً، استغرق مدة الحمل نفسها، كما كانت ولادته طبيعية، كسائر الولادات، وعانى من فقد الأم والأب، ككثير من البشر، وخضع لكفالة الأقارب، وبلغ سن الشباب، وعمل في الأعمال، التي كان يمارسها قومه، كالرعي، والتجارة، وتزوج، وأنجب، وفقد الابن، والبنت، والصديق، والزوجة، وتعرض للأذى والمرض، والنصر، والهزيمة، وحل به من جراحات الحرب، مايمكن ان يحل بكل إنسان، وأعلن اكثر من مرة: انه بشر من البشر، وأن النبوة لم تخرجه عن بشريته، وإنما

امتاز عن البشر بالوحي، والعصمة، حتى يتأهل ليكون قدوة للبشـر ، ويربى على عين الوحي ، قال تعالى على لسـان نبيه مقرراً حقيقة البشرية: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ (الكهف : ١١٠) .

ولعل من الأمور الجديرة بالنظر هنا، ان سيرة الرسول ﷺ التي كـانت تنزيلاً لقيم القرآن، وتجسيداً لها في الواقع البشري، تمثل منهجاً لكيفية التعامل مع القيم، وتطبيقها في المواقع، والأصعدة المختلفة، بمعنى ان القدوة، وتقديم النماذج للاقتداء، لم يقتصر على الحاضر، وإنما استوعب ابعاد الزمن الثلاثة: الماضي، بما عرض من قصص الأنبياء كنماذج، والمستقبل ايضاً في إبصار بعض ملامحه الرئيسة، والإخبار عن كيفيات التعامل معه، والواقع الذي يعيشه الناس، وتقويمه بشرع الله.

لذلك نقول : بان القدوة هنا، في الرسالة الخاتمة، جاءت شاملة شمول الإسلام نفسه، ولئن كان الأنبياء السابقون، يمثلون نماذج للاقتداء في مجالات معينة، فإن النبوة الخاتمة، قدمت القدوة والأنموذج المحتذى في مجال الدعوة، ومنهجها، وكل وسائلها، ومتطلباتها، وفي مجال الدولة، وكل ممارساتها، ووظيفتها، واعبائها، وعلاقاتها،وسلمها وحربها.

والحقيقة التي يمكن أن نلمحها هنا، والتي قد يكون من بعض مدلولاتها اهمية تقديم الأنموذج والقدوة، أن مساحة تعبيرية كبيرة من سور وآيات القرآن الكريم، وهي متواترة الورود، قطعية الثبوت، قد تضمنت عرضاً تفصيلياً لسيرة الرسول ﷺ ، والأنبياء من قبله، حتى لا تبقى القيم والتعاليم الإلهية المنزلة، نظريات مجردة عن النماذج العملية، التي تجسد هذه الأفكار في افعال، وإنما جاءت في معظم الأحوال، مقترنة بالأنموذج التطبيقي.. جاءت متلازمة، مع القدوة، التي تشكل منهج التعامل، وتحويل الفكر إلى فعل، والقيم إلى برامج،

لذلك بالإمكان القول: بأن المنهج، والأنموذج، والقدوة، حُفظت بحفظ القرآن، لأنها لاتقل، من حيث الدلالة العملية، عن آياته شأنًا في عملية البناء والتغيير، حتى إن بعض الباحثين المعاصرين - والأستاذ محمد عزة دروزة رحمه الله ياتي في مقدمتهم - كتبوا السيرة من القرآن مباشرة.

وقد يكون من أبرز الخصائص، التي تجعل المنهج النبوي في التغيير والنهوض والبناء الحضاري، محلاً للاقتداء والتاسي، وتجعله أنموذجًا، يحتذى، إنما هي في واقعيته، وتوافقه مع فطرة الإنسان، وإنه تحقق من خلال تعامله مع السنن الجارية في الكون، ومن خلال عزمات الإنسان، بضعفه وقوته، وتذكره ونسيانه، وفطرته وغريزته، ونزوعه إلى الخير، وانحداره في الشر، واستيعاب جميع ما يتعرض له من الظروف، والأحوال، والقابليات، من الشدة والرخاء ، والسقوط والنهوض، والهزيمة والنصر، ليكون المنهج من ثمّ دليلاً ومرشداً، في كيفية التعامل مع الأحوال كلها، من خلال الاستطاعات المتوفرة، والظروف المحيطة، ولم يتحقق من خلال تعامله مع السنن الخارقة، الخارجة عن طاقة البشر، التي قد تسهم بالتواكل، والإلغاء، وانطفاء الفاعلية، وتؤدي إلى السلبية، والإرجاء. واعتمد الزمن، وسنة الأجل، كعنصر لازم، لإنضاج الفعل الحضاري، وتحكم بالزمن تسخيراً وإنتاجًا، بعيداً عن النظرة الدهرية والجبرية الزمانية، التي كانت من مثالب الكفر، وليس من خصائص الإيمان. ونستطيع القول: إن المنهج النبوي في التغيير، والبناء الحضاري، تحكم بالزمن، وأعاد التعامل معه إلى المسار الحقيقي، وأكد استدارته كهيئته يوم خلق الله السمٰوات والأرض، وأبطل عبث العابثين بمساره، ليتحقق الانسجام، بين السنن الكونية، والسنن النفسية والاجتماعية، فلقد قال الرسول ﷺ في مراحل الاكتمال والكمال للمنهج النبوي، في خطبة الوداع:

إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض.... إلخ، حيث تحقق بالنبوة الخاتمة، التصويب لوجهة الإنسان، والقراءة الصحيحة، لحركة الكون، وغايات الحياة .

والناظر في منهج الرسول ﷺ يرى أنه لم يعان من الثنائية، بين هدايات الوحي، ومدركات العقل.. بين التعامل مع السنن الجارية، بل واستفراغ الجهد في التعامل معها، إلى درجة، قد يظن معها الجاهلون بالمنهج النبوي أن الأمر كله موكول إليها، ومعتمد عليها، وبين الالتجاء إلى الله، والتوكل عليه، واستفراغ الوسع في الدعاء، والابتهال، وانتظار المدد من السماء، لدرجة قد يظن معها الغافلون عن أبعاد المنهج النبوي ومقاصده، أن صاحبها لاعلاقة له بالتعامل مع السنن والأسباب.

كما أنه لم يعان من الثنائية بين القدر، والحرية، والإرادة الإنسانية، بل كان يعتبر أن الأسباب هي قدر من قدر الله، وأن الله الذي خلقها، وجعلها قدراً وسبباً لحصول النتائج، هو القادر على خرقها، وليست المعجزات في تعريفها المبسط إلا خرق للأسباب، وما اعتاده الناس، وأن من الفهم للمنهج النبوي، مدافعة سنة بسنة، ومغالبة قدر بقدر، والفرار من قدر إلى قدر، وأن إرادة الله هي التي أرادت للإنسان أن يريد ويفكر، لمغالبة قدر بقدر، وإلا، كيف يمكن عقلاً وشرعاً، ترتيب المسؤولية على الفعل، إن لم يأت ثمرة للإرادة والحرية ؟ وكيف يمكن أن يتحقق العدل المطلق ، الذي لا يليق غيره بالله سبحانه وتعالى ؟

كما أن منهج الرسول ﷺ، في التغيير والبناء الحضاري، الذي اكتسب خلوده من خلود القرآن، تجاوز حدود وقيود الزمان والمكان، ليكون قادراً على العطاء العالمي في كل عصر ومكان، ويكون قادراً على الاستجابة،

والاستيعاب، لمشكلات كل عصر، وتقديم الحلول المناسبة لها، ولذلك نراه استغرق في التغيير والبناء، مسيرة جيل كامل، واستوعب مراحل التغيير والبناء في كل مايعرض لها من الأحوال، ابتداءاً من حالات الاستضعاف، وحتى التمكين والوصول لحالات الكمال.

لذلك كان منهج المقاصد، والغايات، والأهداف، والاستطاعات.. لم يكن جامداً على حالة واحدة، من حالات الفرد، والمجتمع، والأمة، والدولة، والاستطاعة.. ولم يضع قوالب يابسة، ليصب الناس فيها بكل أحوالهم وحالاتهم، وإنما كان يتغير بحسب الرؤية المتوفرة، والمصلحة المتحصلة، والهدف المطلوب.. يتغير بحسب الظروف والإمكانات، ليستحق أن يشكل القدوة للإنسان، في كل مايعرض له، حتى على مستوى الدعوة والفكر.. كان للحرب خطابه ووسائله، وكان للعهد والسلم شروطه، وضوابطه، وكان للنصر فقهه، وللهزيمة فقهها، وكيفيات التعامل معها.

وكان الرسول ﷺ يحرم بعض الأعمال، في عام، ويبيحها في عام آخر، فعندما أصاب الأمة من المجاعات، نهى عن ادخار لحوم الأضاحي، وعلل ذلك بالدّافة، أي بسبب زيادة الفقر، وقدوم الفقراء على المدينة، للشدة والمجاعة التي يعانون منها، فإذا انتهت المجاعة، أعاد الأمر للإباحة فقال: «**ألا فكلوا وادخروا**».

كما أنه حرم الادخار، والفضل، من المال، والظهر، والزاد، في حالات الشدة وضرورات التكافل الاجتماعي، أو ما يسمى اليوم اقتصاد الحرب، وأباح الادخار في حالات الرخاء.. يروي أبو سعيد الخدري فيقول: قال رسول الله ﷺ: «**من كان له فضل ظهر، فليعد به على من لاظهر له، ومن**

كان له فضل زاد، فليعد به على من لازاد له »، فذكر من أصناف المال ما ذكره، حتى رأينا، أنه لاحق لأحد منا في فضل (رواه مسلم).

هكذا، في بعض الظروف، يحرم المنهج النبوي، في الجانب الاقتصادي والاجتماعي، الادخار، ويعتبر الزائد عن الحاجة حرامًا في حالات خاصة، الأمر الذي لم تعرفه أشد المذاهب تطرفًا.

والمتأمل لمنهج الرسول القدوة، ﷺ، في تعامله مع استطاعة المكلَّف، وفقهه لحالته، وتقرير الأحكام الشرعية، في ضوء إدراك مقاصدها، يرىٰ كثيراً منّا اليوم، هم حملة للفقه وليسوا فقهاء حقًّا.

ولعل في قصة خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها، التي كانت سبب نزول قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم ﴾ (المجادلة: ٢)، وتطور الحكم في ضوء الاستطاعة، ما يلقي أضواء كاشفة على ما نريد.. قال الإمام أحمد رحمه الله تعالىٰ:

« حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا محمد بن إسحاق ب ن يسار، عن محمد بن عمرو بن عطاء، عن سليمان بن يسار، عن سلمة بن صخر الأنصاري، قال: كنت امرءًا قد أوتيت من جماع النساء ما لم يؤت غيري، فلما دخل رمضان تظهرت من امرأتي حتى ينسلخ رمضان، خوفًا من أن أصيب في ليلتي شيئًا فأتتابع في ذلك إلى أن يدركني النهار، وأنا لا أقدر أن أنزع، فبينما هي تخدمني من الليل إذ تكشف لي منها شيء، فوثبت عليها، فلما أصبحت، غدوت على قومي فأخبرتهم خبري، وقلت: انطلقوا معي إلى النبي ﷺ فأخبره بأمري، فقالوا: لا والله لانفعل، نتخوف أن ينزل فينا، أو يقول فينا رسول الله ﷺ مقالة يبقى علينا عارها، ولكن اذهب أنت فاصنع

مابدا لك. قلت: فخرجت حتى أتيتُ النبي ﷺ فاخبرته خبري، فقال لي: «أنت بذاك»؟ فقلت: انا بذاك. فقال: «أنت بذاك»؟ فقلت: انا بذاك. قال: «أنت بذاك»؟ قلت: نعم. ها انا ذا فامض في حكم الله عز وجل، فإني صابر له، قال: «أعتق رقبة»، قال: فضربت صفحة رقبتي بيدي، وقلت: لا والذي بعثك بالحق، ما اصبحت أملك غيرها. قال: «فصم شهرين متتابعين». قلت: يا رسول الله، وهل أصابني ما اصابني إلا في الصيام؟ قال: «فتصدق»، فقلت: والذي بعثك بالحق، لقد بتنا ليلتنا هذه وحشىٰ، ما لنا عشاء. قال: «اذهب إلى صاحب صدقة بني زريق فقل له فليدفعها إليك، فأطعم عنك منها، وسقا من تمر ستين مسكيناً، ثم استعن بسائره عليك وعلى عيالك»، قال: فرجعت إلى قومي فقلت: وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي، ووجدت عند رسول الله ﷺ السعة، والبركة، قد أمر لي بصدقتكم فادفعوها إليَّ، فدفعوها إليَّ، وهكذا رواه أبو داود، وابن ماجه، واختصره الترمذي، وحسنه. (تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، المجلد الرابع، ص ٣١٩، ط دار المعرفة، بيروت، ١٩٦٩م).

ويبقى المطروح باستمرار: كيف ندرك مقاصد المنهج في كل مرحلة؟ وكيف نتعامل مع هذا المنهج من خلال العصر؟ وكيف نتعامل مع العصر ونقوّم حركته ومسالكه، من خلال المنهج؟

وبعــد:

فلا شك أن الكتابة في المنهج، ليس بالأمر السهل، وأنه اليوم بحاجة إلى جهود جماعية، وتخصصات متنوعة، في شعب المعرفة المختلفة، لتحقق أمرين لابد منهما في كل مشروع للنهوض، واستعادة العافية.

أولهما: فقه المنهج النبوي، بعد التأكد من ثبوته، من حيث النقل والحفظ، لأنها المرحلة الأولى والأساس الذي يقوم عليه البناء .

والثاني: هو فقه التعامل مع المنهج ، تطبيقًا على الواقع، الأمر الذي يقتضي فقه الواقع الإقليمي، والعالمي، والإنساني، واستطاعاته .

ولا نزعم للكتاب الذي نقدمه اليوم ، أنه استطاع أن يقدم المأمول، أو أن يحسم بعض الإشكاليات المنهجية، التي يعيشها العقل المسلم، ليحقق النقلة النوعية المطلوبة، من الحفظ، والنقل، والتوصيف، والتحليل، إلى التعليل وامتلاك القدرة على تعدية الرؤية، والتنزيل على الواقع البشري المأزوم، بغياب منهج النبوة .

وحسبنا في هذا الكتاب، أننا طرحنا قضية المنهج النبوي، من وجهة نظر أخرى، ماتزال الدراسات فيها ضنينة ، لأن معظم الدراسات، تمركزت حول منهج الحفظ والنقل، واستنباط الحكم التشريعي، أما أن يكون المنهج النبوي مصدرًا للمعرفة بشكل عام ، ومنهجًا للتغيير والبناء الحضاري، فلا تزال الحاجة إليه قائمة وماسة .

ونعتبر أن غاية ما قدمه الكتاب ، أنه طرح القضية للمناقشة، وفتح ملفها، وقدم محاولة، قد تكون، نجحت في بعض سعيها، وتعثرت في بعضه الآخر، حيث يعوزها الاستدلال والتوثيق، لتحقق البعد المطلوب، وهي محاولة لاتخرج عن سائر المحاولات، والاجتهادات البشرية، التي يجري عليها الخطأ والصواب، ويؤخذ منها ويرد.. ويبقى المطلوب اليوم بشدة، تضافر الجهود لإعادة استيعاب المنهج النبوي، الذي يشكل المعيارية ، لما يؤخذ وما يرد، والله من وراء القصد .

تمهيـــد

الحـمـد لله رب العـالمين ، والصـلاة والسـلام على أشـرف المرسـلين محمد ﷺ .. وعلى آله وصحبه وتابعيه بإحسان إلى يوم الدين .. وبعد ..

فلقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان، وكرمه بفضله، وأمده من علمه، وجعل له عقلاً، وسمعًا، وبصرًا، وفؤادًا، وسخر له الأرض ذلولاً، والكون خدومًا، ووهبه قوى التعقل، والتدبر، والنظر، وأعطاه حياة ووقتًا. ثم كلفه برسـالة الاسـتـخـلا ف في الأرض. ولكن الإنسـان وهو يتـفـاعل مع الحيـاة ومشكلاتها، والكون وأسراره، والتاريخ وسننه، بحاجة إلى مرشد يبصره بطريق الحق، ونور يدله على معالم الطريق، إذ العقل البشري لا يقوى وحده على إدراك سنن الخير، وسنن الشر، ولا يقدر بوعيه المحدود على فهم خبايا الكون، والحياة، والتاريخ، والوجود، ولهذا فقد وهبه الله خيرًا آخر، وفضلاً عظيمًا من أفضاله ذلك هو «علم النبوة» الذي انبثقت عنه مناهج الهداية التي حملها الوحي الأعلى إلى الأمم والشعوب كافة، عن طريق الأنبياء، والرسل صلوات الله عليهم أجمعين. إذن قد أمد الله سبحانه وتعالى الإنسان بمنهاج قويم، ومسلك أمين، يدله على سبيل الفوز المبين. ثم شـاءت إرادة المولى تبارك وتعالى، أن يختم علم النبوة بالرسالة المحمدية التي أعطت للاستخلاف مضمونًا عالميًا شموليًا، وبعدًا دعويًا إنسانيًا هاديًا.

وفي الحركة الإسلامية الخاتمة، تمكن نبي الإسلام ﷺ من بناء حضارة توحيدية سامقة، واستطاع أن يقدم للبشرية جمعاء، نموذجًا فطريًا لتغيير حضاري إنساني، كوّن به إنسانًا استخلافيًا، وثقافة إنسانية، ومجتمعًا

منسجمًا، وتاريخًا عالميًا، وحضارة متوازنة. والنبي ﷺ وهو يواجه ظروف بناء الحضارة الإسلامية، كان منضبطًا بمنهج تغييري، يستمد وجوده، ووعيه، وأصوله من معيار الوحي الإلهي.

ولما كان أي بناء حضاري إنساني، مفتقر في حدوثه إلى منهج تغييري يقوده نحو غاياته، ومقاصده، بخطوات منظمة وسليمة، فقد استدعت العملية التغييرية النبوية وجود ذلك المنهج. والمنهج النبوي في البناء الاجتماعي، منهج فطري متوافق مع سنن الله في الخلق، ومنسجم مع قوانين الدعوات الإنسانية.

من هذه الأهمية العظيمة للمنهج النبوي، وقدرته على تركيب حضارة عالمية نموذجية، تستجيب لقانون الفطرة العالمي، برزت الضرورة الملحة لدراسته من وجهة نظر «حضارية سُننية»، تنفذ إلى محاولة وعي المنهج النبوي، بغرض استدعائه، ليساهم بقدرته الفائقة في حل معضلات الإنسان المعاصر وهو يستقبل عصر العالمية.

ففي هذا الجهد المتواضع جدًا، حاولت ان انبه إلى اهمية المنهج النبوي في البناء الحضاري الجديد، وذلك لما للوعي بهذا المنهج، من فقه بصير، وإدراك عميق، وفهم سديد لسنن الدعوات، وقوانين النهضات، ومناهج البلاغات، ومقاصد الديانات، واخلاق السياسات، وحاجات النفسيات، ومتطلبات العقليات، واستعدادات الشخصيات، وثقافات الجماعات، وسلوكات الأمم الناجيات، وشرائع الرحمة الميسرات. ففي المنهج النبوي، سبل لهداية الناس إلى الأعمال الصالحات، والأقوال الصائبات، والعبادات الصحيحات، والمعاملات النافعات، والمواقف المرضيات.

لقد قسمت هذا الكتاب إلى تمهيد، وثلاثة فصول، وخاتمة. بسطت الحديث في الفصل الأول، عن الإطار المنهجي العام، الذي يجب أن يدرس فيه المنهج النبوي، مركزاً على أهمية النظرة الكلية إلى السنة النبوية، وإلى طبيعتها الحضارية، مع إبراز بعض أبعاد المنهج النبوي، كالبعد المقاصدي، والبلاغي الدعوي، والسُّنني، وتدعيمها بنماذج، ودروس من الفقه النبوي العملي.

أما الفصل الثاني، فقد خصص لمعالجة قدرة المنهج النبوي على فهم، واستيعاب الظاهرة التغييرية في العصر العالمي، مع تحديد أسباب هذه القدرة، ومحاولة اكتشاف منطقية السنة النبوية، ومنهجها الاستدلالي. وبعد ذلك حاولت تحديد بعض الخصائص التي تطبع الواقع العالمي الراهن، مع إعطاء نموذج تحليلي لقدرة المنهج النبوي على حل المأزق العالمي الراهن، ومحاولة تحديد مفهوم إسلامي للتغيير الحضاري، بجانب الإشارة إلى بعض الفهوم المزيفة للتغيير.

أما في الفصل الثالث، فقد أثرت قضية من أهم قضايا الفكر الإسلامي، وهي المنهج النبوي وقدرته على تركيب حضارة في العصر العالمي، وهنا تطرق التحليل إلى بعض القوانين التي تحكم التغيير الاجتماعي، ومنها قوانين التوجيه، وفلسفة الانطلاق، والثقافة. كما تم التنبيه إلى منهج الترشيد النبوي للحركة التغييرية، وإلى محاولة استخراج معالم المنهج النبوي، وطبيعة الإنسان الذي يريد هذا المنهج تشكيله، وتقديم نموذج لإنسان الاستخلاف الذي بناه رسول الإسلام ﷺ. ثم ختمت البحث ببعض الملاحظات المهمة.

لقد تم هذا العمل المتواضع في قسمه الأول «المقدمات»، بحول الله

وتوفيقه، وإننى لسعيد جداً أن اشير إلى تلك الجهود التي بذلها اخي الأستاذ مصطفى عبد اللطيف حللي، في سبيل إنجاز هذا الجهد البسيط، الذي استفاد كثيراً من نصائح، وتوجيهات اخي العزيز الدكتور إبراهيم محمد زين، الذي كان فعلاً مثقفاً مسلماً متميزاً باهتمامه بقضايا الأمة، حريصاً على مستقبلها، عاملا من أجل نهضتها. فقد عرضت عليه فكرة الكتاب في البداية، فرحب بها، وابدى رايه الذي اقدره كثيراً، ثم بعد أن انجزته بحول الله وقوته، اطلعته عليه مخطوطاً، فطلب مني ان اقوم بنشره بسرعة. كما سعدت كثيراً بترحيب البروفيسور الدكتور عبد المجيد مكين المفكر السيلاني المسلم بفكرة هذا الكتاب، حيث افدت كثيراً من أفكاره، وتوجيهاته القيمة. فجزى الله سبحانه وتعالى كل من ساهم في إنجاز هذا العمل، من قريب أو بعيد.

كوالالمبور – ماليزيا
١٥ / ديسمبر ١٩٩٣م

الفصل الأول

الإطار العام لدراسة المنهج النبوي

كما هو معلوم في كل نوع من أنواع المعرفة البشرية، أن دراسة أي مشكلة من المشكلات، يقتضي بالضرورة أن يمتلك الباحث رؤية، أو منظوراً منهجياً، يتصور من خلاله المسائل، ويحلل في ضوئه الفرضيات، والإشكاليات المطروحة على بساط البحث. ودراسة السنة النبوية، كظاهرة دينية، واجتماعية متصلة بالواقع الإنساني، في كل مستوياته، العقلية، والنفسية، والسلوكية، والعمرانية، الفردية، والجماعية، بحاجة إلى مدخل منهجي، يتيح للباحث فيها فرصة دراستها بشكل مستوعب، ينكب به إلى فهمها، واستخراج قوانينها، وسننها، وإدراك منطقيتها، ومنهجها الاستدلالي، ونظامها الفكري الذي يتفرع إلى ما هو إلهي، وإلى ما هو بشري. فالدراسة العلمية للسنة النبوية، باعتبارها مركباً لحضارة من جهة، وأثراً من آثار الوحي على أرض الواقع من جهة أخرى، تستدعي فهما مستوعباً للمفتاح المدخلي، الذي يمكن الباحث من دراستها بشكل صحيح، ومثمر.

أهمية النظر الكلي في قضايا السنة

فكثير من البحوث الإسلامية في هذا الميدان، وعلى اختلاف لمداخل الدراسه أظهرت أن هناك قصوراً منهجياً في إطار الدراسة، وأرضيته التحليلية، يؤدي دائماً إلى تقديم السنة من إحدى زواياها المتعددة دون الأخرى. وهذا ما يجعل عملية التفاعل مع السنة تعاني من «النظرة الجزئية» التي تكتشف أحد أبعادها معزولة عن الأبعاد الأخرى... فالمتكلم، والأصولي، والمحدث، والمفسر،

والفقيه، وعالم السيرة، والتاريخ، وعالم الاجتماع، والاقتصادي، والسياسي، والعسكري، والفيلسوف، والتربوي، والمفكر... كل واحد من هؤلاء له منهجية في دراسة السنة النبوية.. فمحاولات الاستفادة منها تتم من زاوية التناول التي تخدم مجال الدراسة.. وكل منهجية تكشف لنا بعدا من أبعاد السنة، فلو تأتّى لأحد تقديم دراسة تكاملية، تستفيد من كل هذه المنهجيات، وتنظر إلى السنة في كل أبعادها، لقدم لنا منهجًا جديداً، ومدخلاً متكاملاً، قد يتيح لنا فرصة فهم السنة، والإفادة منها في حياتنا العقلية، والنفسية، والسلوكية، والعمرانية...

وسوف لا أزعم في هذه الدراسة، أنني قادر على تقديم هذا المنهج المتكامل في دراسة السنة النبوية، لأسباب أذكر منها هنا سببين اثنين هما :

- صعوبة المهمة على الصعيدين المنهجي، والمعرفي معا. فالمنهجية المتكاملة في دراسة السنة النبوية، تقتضي سبراً عميقًا للمناهج الجزئية في دراستها، وهي التي أشرنا إليها قبل قليل.. وكذلك بالنسبة للجانب المعرفي الذي يقتضي إلمامًا واعيًا بما أنتجه تطبيق المناهج الجزئية من معارف، وأفكار منثورة في كتب الأمة المتنوعة، وهذا مما هو متعذر في الوقت الراهن على المؤسسات، ناهيك عن الأشخاص..
- أما السبب الثاني فهو راجع إلى منهجية هذا البحث المتواضع، إذ لا يمكن الحديث عن مثل هذا الطرح قبل وضع إطار منهجي له، تدرس ضمنه الأفكار، وتحلل الإشكاليات.

طبيعة الجهد النبوي من الوجهة الحضارية

فمن هنا آثرنا في هذه الدراسة الأولية، في موضوع (المنهج النبوي والتغيير الحضاري الجديد)، أن نحاول تحديد مدخل منهجي عام للتعامل مع الظاهرة السنية.

إن دراسة سيرة الرسول ﷺ وحركته، في مدة ثلاثة وعشرين عاماً، هي في جوهرها دراسة في تشكيل حضـــارة، وبنــاء نموذج حياتي جديد، يدين : بـ (لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) . فأقواله، وأفعاله، وتقريراته، وشمائله، وفضائله، وأخلاقه ﷺ هي القواعد التي عليها بنى المجتمع الإسلامي، وعضد لبناته . فلم يكتف عليه الصلاة والسلام بوضع مخططات التغيير، وبرامجه، ومناهجه، وكيفياته، وموجباته، بل ساهم في البناء حتى وصل به إلى المرحلة التي أكمل فيها (مهمة البلاغ المبين) التي أمره بها الخالق عز وجل . حيث لا يمكن لأي مشكك أو متوهم أن يثير أي شبهة عن كمال هذه المهمة، وشمولها لكل ما يخص بناء الإنسان، والمجتمع، والثقافة، والحضارة التي تدين بالإسلام .

قال تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (المائدة : ٣) .

ومهمة البلاغ المبين على الصعيد العملي، هي التي أنتجت الحضارة الإسلامية، وأدخلت القبائل العربية الجاهلية إلى مرحلة التفاعل مع القضايا الحضارية الكبرى التي كانت تدور على محوري فارس، وروما . فالمبلِّغون الأوائل تحت قيادة الرسول ﷺ هم المؤسسون (لعلم الدعوة الحضارية العالمية) على الصعيدين النظري، والعملي . . وبطبيعة الحال تكون دراسة الحضارة الإسلامية الأولى هي دراسة في صميم الجهد النبوي، وفي منهجيته في البلاغ، والدعوة، والتغيير الحضاري، والتي كان من آثارها ذلك العملاق الإسلامي الذي أثرى مسيرة الإنسانية، وقدم لها نموذجاً حضارياً فطرياً متوازناً، ومتطابقاً مع الخطاب الإلهي . . فكانت الحضارة الإسلامية هي (حضارة المصلحة) بخلاف الحضارات التي عاصرتها، والتي نعاصرها نحن اليوم بعد أربعة عشرة قرناً من

الزمان، أعني (حضارات المصلحية) !!.

فالدارسون لجهد الرسول ﷺ الثاوي في كل جانب من جوانب الحضارة الإسلامية، يجب أن يلاحظوا بأن هذا الجهد كان نتاجًا طبيعيًا لتفاعل عناصر أساسية لا يمكن أن نفهمها إلا في صورة متكاملة، تقدر قيمة كل عنصر من عملية البناء الحضاري النبوي وهي :

- عنصر الوحي الأعلى (قرآناً وسنة) بما فيه الرؤية، والمنهاج، والمشروع الإسلامي.
- وعنصر الواقع الجاهلي، في معناه الشمولي المتضمن لحضارتي فارس، والروم.
- والجهد النبوي، في منهجيته، ومقاصده، ووسائله، وأساليبه.
- وجهد الصحابة، على اعتبار كونهم الجماعة المؤسسة الأولى..

فالنبي عليه الصلاة والسلام بشر، كان يتحرك بالوحي في واقع إنساني، ومطالب بالتبليغ عن ربه، وذلك بدعوة الناس إلى الإسلام، وتشكيل الجماعة الموحدة التي تحمل همّ المشروع، وهم توريثه للأجيال الإسلامية المتعاقبة. فمهمة الرسولﷺ تقتضي وعيا على الخطاب الإلهي، ووعيًا على الواقع، ووعيًا على معادلات البشر، والمجتمعات المعاصرة، ووعيًا على منهج البلاغ المبين، ووعيًا على علوم التوجيه، والتربية، والسياسة، والاجتماع، والتاريخ والحروب.. ونحن عندما ندرس جهده عليه الصلاة والسلام، نجد فيه كل هذه التخصصات منظمة في وحدة متكاملة، ومتناسقة. ففي كل عمل أو قول أو تقرير أو خلق... تبرز لك الحكمة، وترى الوعي يتدفق ليروي عقول العلماء العظام الذين أفنوا أعمارهم في التحصيل، فلا يسعهم أمام هذا الجهد إلا الاعتراف الصادق والحقيقي بعظمته، وصحته، وفعاليته..

معالم منهجية الرسول ﷺ في البلاغ المبين

إن دعوة الرسول ﷺ كمبلّغ عن ربه سبحانه وتعالى، دعوة عالمية إنسانية، موجهة إلى كافة الخلق بخطاب أخلاقي، وعقلي، غايته بناء الحضارة التي يكون بمقدورها تحقيق مقاصد الشارع في الخلق، وتوفير موجبات الاستخلاف للعباد. لقد كان عليه الصلاة والسلام يخاطب الناس حسب افهامهم، ودرجات وعيهم، وقدراتهم، وفي كل خطابه راعى الرحمة، والتيسير على الخلائق، وحملهم محمل المصلحة، ورفع الحرج، ونبذ شرائع الأصر والأغلال، وإدخالهم في السلم كافة، قال تعالى :

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء : ١٠٧). وقال رسول الإسلام ﷺ : (يسروا ولا تعسروا بشروا ولا تنفروا) [١].

وعليه، فدراسة منهجية الرسول ﷺ في البلاغ المبين، يجب ان تتم على أساس هذا الوعي الغائب، والجاري على المصلحة.

وإذا كانت منهجية الرسول ﷺ مستندة إلى قاعدة المصلحة، والتيسير، والعلم بحاجات الخلق، وقدراتهم، ومراعاة أحوالهم في السراء والضراء، والمنشط والمكره، فإن فهمها كمنهجية لفعل حضاري توحيدي، يجب ان يتأسس على هذا الفقه المصلحي. ونحن هنا لكي نفهم المنهجية النبوية لابد ان ندرسها من خلال بعض المداخل المهمة، والتي منها :

- البعد التوحيدي.
- البعد المقاصدي.
- البعد البلاغي (الدعوة).
- البعد السُّنني.

(١) متفق عليه من حديث أنس.

- البعد العقلي (العملي) .
- البعد الأخلاقي .
- البعد الزماني .

وفي هذه الدراسة سوف نركز على تحليل بعدين ، مرجئين غيرها إلى حينه بإذن الله تعالى .

أولا : البعد المقاصدي للمنهج النبوي

الجهد النبوي بأكمله مبني على مراعاة مقاصد الشارع في الخلق، ونحن في هذا العنصر، نريد فهم المقاصد كإطار منهجي، كان سمة الجهد النبوي خصوصاً، وكضابط حاكم على الحركة الاجتهادية الإسلامية عموماً.

ملاحظة عن النظام المقاصدي

فقصد الشارع قد انصرف ابتداءاً إلى درء المضرات على الناس، وجلب المسرات الدنيوية، والأخروية لهم. فالنظام المقاصدي ركب أصلاً من أجل تحصيل مقصد كلي عظيم، يفتقر إليه الوجود البشري بفطرته التي فطره الله عليها، وهو (مقصد الاستخلاف) الذي تنبني عليه كل المقاصد الأخرى، وتصدر عنه منظومة المصالح البشرية. يقول الإمام الشاطبي رحمه الله في موافقاته:

(لما انبنت الشريعة على قصد المحافظة على المراتب الثلاث من الضروريات، والحاجيات، والتحسينيات، وكانت هذه الوجوه مبثوثة، في أبواب الشريعة، وأدلتها غير مختصة بمحل، ولا بباب، ولا بقاعدة دون قاعدة، كان النظر الشرعي فيها أيضاً عاماً لا يختص بجزئية دون أخرى، لأنها كليات تقضي على كل جزئي تحتها « . . . » فإذا وجدنا أن الحفاظ على الدين، أو النفس، أو النسل، أو المال، أو العقل، في الضروريات معتبر شرعاً، ووجدنا ذلك عند استقراء

جزئيات الأدلة، حصل لنا القطع بحفظ ذلك، وأنه المعتبر حيثما وجدناه) [١].

مقصد الاستخلاف

ففي كلية الاستخلاف التي هي أصل الكليات السابقة، نجد مصالح الفرد، ومصالح المجتمع، كما نجد مصالح الإنسانية... فحفظ الدين، والنفس، والعقل، والمال، والنسل، أمور مطلوبة شرعًا.. ولكن كلية الاستخلاف الكبرى التي بعث الخطاب الإلهي من أجل تحقيقها، لا تقتصر على القضايا الخمسة المذكورة في معظم كتب الأصول، ولكنها تتعدى لتنبه إلى قضية أخرى في غاية الأهمية، وسوف لن تتحقق مصالح العباد على الوجه المطلوب إذا لم تراع. وهذا معناه أن النظام المقاصدي القائم، يحتمل إضافة كليات، يمكن أن تكون مما دل الشرع على اعتبارها ، وجاء أصلاً للمحافظة عليها ، وفي هذا يقول ابن تيمية – رحمه الله – عن علماء الأصول المشتغلين بفكرة المقاصد :

(... رأوا أن المصلحة نوعان : أخروية ودنيوية، جعلوا الأخروية ما في سياسة النفس، وتهذيب الأخلاق، من الحكم، وجعلوا الدنيوية : ماتضمن حفظ الدماء، والأموال، والفروج، والعقول، والدين الظاهر، وأعرضوا عن العبادات الباطنة والظاهرة من أنواع المعارف بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، وأحوال القلوب، وأعمالها : كمحبة الله، وخشيته، وإخلاص الدين له، والتوكل، والرجاء لرحمته، ودعائه، وغير ذلك من أنواع المصالح في الدنيا والآخرة، وكذلك فيما شرعه من الوفاء من العهود، وصلة الأرحام، وحقوق المماليك، والجيران، وحقوق المسلمين بعضهم على بعض، وغير ذلك مما أمر به ونهى عنه : حفظًا للأحوال السنية، وتهذيب الأخلاق، ويتبين أن هذا جزء من أجزاء ما جاءت به الشريعة من مصالح) [٢].

---

(١) الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق الشاطبي، ج٣، دار الفكر العربي، ص : ٥ – ٦ – ١٠ بتصرف خفيف.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية، ج٣٢، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد.

إن ملاحظة شيخ الإسلام تبحث في صميم (النظام المقاصدي) [1]؛ وكأنه يريد أن ينبه على ضرورة إعادة قراءة مقاصد الشريعة، ومحاولة إدراج أهداف أخرى دل الشرع على اعتبارها، حيث رأى أنه من الضروري إلحاقها بالكليات السابقة.. وسواء أكان ما اقترحه من مقاصد يمكن أن يشكل كلية جديدة، تدرج في عداد الكليات الموجودة، أو كان داخلاً أصلاً في الكليات القائمة، ولكن الاشتعال بها كان قليلاً فوجب التنبيه عليها، فإن الأمر الذي يهمنا هنا هو طلب الاجتهاد، والدعوة إليه في قضية تبدو أنها اكتملت حلقتها.. وحتى الإمام الشاطبي الذي أدار البناء الأصولي بأكمله على مقاصد الشريعة، ركز على نفس الكليات الموجودة من قبل.

كلية الكون

إننا ونحن نستقبل العصر العالمي بكل ظروفه، وموجباته، نلاحظ بأن الإنسانية بحاجة إلى فهم أعمق لمقاصد الشارع في الخلق، تلك المقاصد التي إذا لم تعتبر في حياة الناس، فإن ذلك سيفتح عليهم مسالك المضرات، والمشقات، والأهواء التي لا تحمد عقباها في الدارين.

ومن بين المقاصد الكلية الضرورية التي دل الشرع على حفظهما واعتبارها: (مقصد المحافظة على الكون) بمفهومه الواسع، الذي يشتمل على كل ما سخره الله لخلقه من بحار، وأرض، وجبال، ومعادن، وطبيعة.. وآيات التسخير في القرآن كثيرة جداً. فما يحصل اليوم في حياة الناس من جراء التفاعل غير الصحيح مع الكون، وما تعانيه البشرية من تلوثات، ومجاعات، وتهديد بنفاد المسخرات الإلهية – حسب البناء الفلسفي للنظرية الاقتصادية المادية – إنما يعبر

(١) راجع البرهان للإمام الجويني، والمستصفى للإمام أبو حامد الغزالي، وإرشاد الفحول للشوكاني، ومقاصد الشريعة للطاهر بن عاشور.

عن جهل الناس لمقاصد الشارع الحكيم، التي دلت على حفظ الدين والنفس والعقل والمال والنسل، كما دلت على حفظ الكون ؛ فهذه الكلية الأخيرة تؤدي غرضين في موضوع الاستخلاف :

- التسخير المادي وما يشتمل عليه من خيرات هي قوام العمران البشري، والبناء الحضاري في جانبه المدني والمعاشي...
- التسخير السُنني وما يشتمل عليه من آيات، وسنن، وقوانين دالة على أنه الحق تبارك وتعالى .. قال عز وجل : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (فصلت : ٥٣) . فللكون دور أساس وضروري في هداية الناس إلى الحق تبارك وتعالى . والناس عندما لا يحافظون على الكون، ولا يسخرونه كما أمر تبارك وتعالى، فإنهم سيهلكون؛ وما تلوث البيئة الحالي، الذي يهدد بهلاك النسل، إلا مظهر من المظاهر الدالة على أزمة عدم المحافظة على كلية الكون، التي دل الشرع على اعتبارها، إذ بدون ذلك ستضيع كل مصالح الناس الخاصة بحياتهم المادية، والمعنوية..

وهناك توجيه نبوي عظيم الدلالة في هذا الميدان، قلَّ ما يدركه الباحثون وهو قوله ﷺ : **(إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها)**(١) .

إن مقاصد الشارع في الكتاب، والكون، والأنفس، وضعت لتحقيق مصالح العباد في الدارين، وبها سيحصل الاستخلاف الذي وجد البشر من أجله أصلا، كما أنها تمثل أصلاً، منهجًا تغييريًا مستقيمًا على الطريقة.

المنهج النبوي كإطار عملي للمقاصد

من استقراء السنة النبوية، يتضح بجلاء البعد المقاصدي، في السيرة

(١) صحيح، رواه أحمد (صحيح الجامع) .

النبوية، فكل ما صدر عنه ﷺ يقع في دوائر التيسير، والرحمة، والعدل، ورفع الآصار والأغلال، ويهدف إلى حفظ مصالح الخلق المتعلقة بحياتهم الفردية، والجماعية، والإنسانية.. وحياتهم المعاشية، والروحية.. فمنهجية الرسول عليه الصلاة والسلام المضمنة في أقواله، وأفعاله، وتقريراته، وأخلاقه، وشمائله، مصبوغة بالمنطق المقاصدي الهادف.

فكل جهده يجب أن يدرس في إطار مقاصد الشارع.. فاعتماده على منهج التربية، والتكوين، والتدريب على الاجتهاد، والتشاور، والتفكير، والتبين، والسير في الأرض، والجهاد، إنما كانت غايته الأساسية توفير الجو والوسط، الذي تنمو فيه «العقلية المقاصدية» المتدبرة لخطاب الله، والتي تسبر أعماق البلاغ الرباني المبين، وتحمل رسالة القول الثقيل.. حيث كان عليه الصلاة والسلام (مرجعية مقاصدية) توجه الناس إلى الأسرار، والمقاصد التي حملها التكليف الرباني للخلق.

فعندما نقوم بدراسة سنن نبينا عليه الصلاة والسلام، وأحاديثه التي حوت أقواله، وأفعاله، وتقريراته، وسائر أعماله، علينا أن نلاحظ المسحة المقاصدية، التي لم تكن علماً صناعياً ينكب فيه عليه الصلاة والسلام مع صحابته الكرام على طاولات البحث، والدرس، والتحصيل المدرسي، بل كانت سلوكاً وروحاً، تسري في عروق الناس، وتغذي جنين الحضارة برسالة الإنسان في الأرض، وتريه حقيقة وجود الكتاب، والكون، والناس، وتبين له أن كل شيء وجد ليحقق مصالح الناس في الدارين..

ثانيا : البعد البلاغي للمنهج النبوي

يقول المولى تبارك وتعالى في كتابه العزيز الحكيم : ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ

﴿وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (إبراهيم: ٥٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (المائدة : ٦٧)

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ (المائدة : ٩٢).

المنهج النبوي كإطار تطبيقي للبلاغ المبين

هكذا خطت الفكرة القرآنية طريقها نحو مشروعها الاستخلافي، وهكذا تقرر المنهج ليكون بلاغيًا ودعويًا في أصوله الأولى. فالبلاغ المبين هو طريق البناء الحضاري التوحيدي، والدعوة البلاغية هي سبيل التحرك الإسلامي المبين في التاريخ.

فالمبلغ الذي يحمل همّ الدعوة الحضارية العالمية، التي تنبثق في أصولها، ومنهجها عن مصادر التوحيد الإسلامي، مطالب بالفقه العميق لمنهاج الهداية الحضارية، ومنهج الإصلاح الإنساني، ومنهجية التغيير الثقافي. وهنا تظهر أهمية سنة الرسول ﷺ في تقديم الوعي المستوعب، على هذه القضايا المتعلقة أصلاً بالمنطق العملي للبلاغ المبين، وصياغته التطبيقية، كيما يتحول إلى قوة تنفيذية للنظرية الحضارية الإسلامية، ومحاولة تحويلها إلى مواقف سلوكية يومية تدخل في توجيه حياة الناس العامة والخاصة، الأخلاقية والمادية، العقلية والنفسية، الفكرية والاجتماعية، الأدبية والعمرانية.

فالمنهج النبوي لا يقدم فقط الإطار المرجعي للسلوك البلاغي الدعوي، والمنهاج التوجيهي للفعل الإصلاحي، والترشيدي، بل يقدم بالإضافة إلى ذلك البناء العملي لهذه الأفكار النظرية. فالسنة أصلا موقف عملي منهجي منظم،

دخل في اطراد بناء المجتمع الإسلامي الأول، وترك للأجيال الإسلامية معيار البناء الحضاري الخاضع لتعاليم الوحي، والمنضبط بتوجيهاته. فالباحث في السنة باحث أيضاً في الأصول التطبيقية للحضارة الإسلامية، وفي المناهج السلوكية، التي حولت الفكر النظري إلى سياسة عملية.

ومن هذا التاسيس نكون أمام مطلب جوهري في التعامل مع السنة النبوية، وهو إلزامية كشف، وفهم البعد البلاغي والدعوي للخطاب الإسلامي، الذي أودعت فيه جهود النبي عليه الصلاة والسلام، روح المنهج البلاغي الإسلامي، وبينت قواعده، وخصائصه، ومضامينه، ومناهجه.

فالرسول ﷺ كان مبلغًا، ومعلمًا، ومصلحًا، وداعيًا، وشاهدًا، ومبشرًا، ومنذرًا، وهاديًا، يعتمد في خطابه على (الحكمة والموعظة الحسنة)، تمامًا كما دلت النصوص القرآنية والحديثية في مثل قوله تعالى:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (النحل: ١٢٥).

﴿ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (يوسف: ١٠٨).

لقد كان يخاطب النفوس، والعقول بما تطيقه، خبيرًا بالواقع، عالمًا بأحوال المخاطَبين، مدركًا لثقافتهم وتاريخهم، عارفًا بمداخل استجابتهم، مستوعبًا لمناهج مجادلتهم، واعيًا على قدراتهم، وإمكاناتهم، واستعداداتهم، وآمالهم، وآلامهم.

معادلـة البـلاغ المبين

لكي ندرك بوعي، نظرية البلاغ المبين، كما تتصورها المذهبية التوحيدية، نحتاج إلى التعرف على أمرين اثنين هما :

١ – مفهوم البلاغ المبين وشروطه.

٢ – محاور البلاغ المبين.

١– مفهـوم البـلاغ المبـين وشـروطه

فـهم نظرية البـلاغ المبين،كـمـا يطرحـهـا النمـوذج الحـضـاري الإسـلامي، يستدعي عرضـها على ميزان خطاب الله سبحانه وتعالى. ففلسفة هذا البلاغ ومناهجه، ووسائله، وغاياته، ومقاصده، تتحدد بالفلسفة القرآنية المتعلقة بقضايا الحياة، والكون، والإنسـان، وصيرورة الوجـود الدنيوي عـمـومًـا. وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقول: بأن وظيفة البلاغ المبين، هي: تمكين الأمة من إنجاز رسالة الشهادة على الخلق، وتحقيق مسؤولية الأمة الوسط، وإقامة الحجة الدامغة على الناس، وتبيين أنه الحق تبارك وتعالى، وتحقيق تبعات هذه المسؤولية على صعيد :

– العبادة الحقة لله سبحانه وتعالى.

– الإعمار الكوني.

– التسخير السُنني.

– الإنقاذ الحضاري للبشر.

– التعارف الثقافي بين الأمم والشعوب..

وعليه، فـالبـلاغ المبين هو جـميع الجـهـود الإسـلامـيـة المخلصـة لله سـبـحـانه

وتعالى، والمتوافقة مع الهدي النبوي، والهادفة إلى توفير موجبات الاستخلاف الحق في الأرض، وتحصيل مقاصد الشارع في الخلق، عن طريق العرض المنهجي للإسلام في شموليته، وتكامله كنظام حياتي، مستوعب لسعادتي الدنيا والآخرة، وتثقيف الناس على مذهبيته ورسالته ومشروعه، والسعي إلى بنائه، الواقعي بالوسائل المشروعة والمتماشية مع ظروف الواقع الإنساني المتغير في الزمان والمكان.

ومن هنا، ولكي نحقق بلاغًا مبينًا وهاديًا في مستوى التحدي العالمي الذي تستدعيه مسيرة البشرية، وتطوراتها العقلية والثقافية، والمنهجية، والحضارية، علينا أن نحقق بعض الشروط الأساسية، والتي منها :

- الفهم العميق لخطاب الله سبحانه وتعالى، في مذهبيته التوحيدية، ورسالته الاستخلافية، ومشروعه الاجتماعي. وتعد هذه الغاية مرحلة من مراحل البلاغ المبين نسميها : (مرحلة فهم الخطاب الإلهي).
- الفهم العميق لسنة النبي عليه الصلاة والسلام، وفلسفته في البلاغ المبين، ومنهاجه في الهداية، ومنهجيته في تطبيق الإسلام، وبنائه واقعيا، وتعتبر كذلك هذه الغاية، مرحلة من مراحل البلاغ المبين نسمها : (مرحلة فهم النموذج التطبيقي للإسلام).
- الفهم المستوعب للسنن الإلهية التكوينية، والتاريخية، التي تتحكم في البلاغ المبين، وفي بناء الدعوات الحضارية، وتعتبر هذه الغاية كذلك من مراحل البلاغ المبين ونسميها : (مرحلة السير في الأرض، والوعي السنني).
- الفهم العميق لطبائع المراحل الحضارية التي مرت، وتمر بها البشرية، بغرض فهم صيرورتها فوق الكوكب الأرضي، ونسمي هذه المرحلة من مراحل البلاغ المبين: (مرحلة فقه العمر الحضاري للإنسانية).
- الفهم المستوعب للواقع المحلي، والعالمي، في تركيبه، وبنائه، وتاريخه،

ونسمي هذه المرحلة البلاغية: (بمرحلة فهم الواقع القائم، والخبرة التاريخية، والمستقبل المنشود للبشرية).

- الفهم العميق لمنهاج بناء البلاغ المبين في الواقع الحياتي للناس، وتعد هذه المرحلة البلاغية مرحلة تطبيقية تنتج عن الوعي المتحصل من فهم المراحل السابقة، ومحاولة استخدامها في مشروع اجتماعي عملي، ونسميها (مرحلة البناء الحضاري) [١].

٢ - محـــاور نظرية البـــلاغ المبين

فإذا أدركنا بأن مفهوم البلاغ المبين مستوعب لرسالة حضارية جماعية، واستشعرنا صعوبة تحقيق شروطها، وضخامة المهمة الملقاة على عواتقنا كأبناء أمة إسلامية رسالية ، وجب علينا أن نفهم المحـاور النظرية ، والتطبيقية لنظرية البـلاغ المبين[٢].

فلكي نـؤدي وظيـفـيـة البـلاغ المبين، علينا أن نعي فلسـفـة هذا البـلاغ، ومناهجه، وعلاقته بالعلوم النفسية، والاجتماعية، والثقافية، والعلوم الشرعية من جهـة، والعلوم السياسية، والاقتصادية، والتربوية، والوسائلية، والإعلامية، والجغرافية، والتكنولوجية، والصناعية، والعلوم الطبيعية، والكونية (الآفاقية) من جهة ثانية.

إن الصلة وثيقة جداً بين هذه العلوم، ونظرية البلاغ الإسلامي المبين، على اعتبار أنه - البلاغ - الغاية القصوى لكل هذه العلوم. فكل علم إسلامي نقلي أو عقلي، مطالب شرعًا بأن يقصد في غايته، المساهمة في البلاغ المبين ؛ إذ هذه العلوم تبقى فاعلة، وعملية، إذا نزلت إلى ساحات البلاغ التي تقدم فيها الهداية

---

(١) راجع كتابنا: التغيير الحضاري والسنن الإلهية «تحت الطبع». وستجد فيه كل التفاصيل المتعلقة بهذه المراحل وأهميتها.

(٢) راجع : الخطاب الإسلامي وموقف المسلمين منه، للشيخ الطيب برغوث.

الإسلامية للبشرية في كل المجالات الحياتية، ونحن في هذه الدراسة الأولية سوف لا نتتبع هذه الصلات الموجودة بين البلاغ المبين، والعلوم المختلفة، لأسباب منهجية، وموضوعية خاصة بوحدة الموضوع، ولكننا سنقتصر على ذكر ملاحظات عن المحور الفلسفي، والتاريخي، والواقعي «المنهجي» للبلاغ المبين كما عرضته سيرة الرسول ﷺ مرجئين المحور السياسي، والاقتصادي، والثقافي، والتربوي، والمعرفي إلى حينه إن شاء الله.

أ - المحـور الفلسفي للبـلاغ المبين

وأعني به فلسفة هذا البلاغ، ومضامينه التصورية الكبرى، وعلاقاته المنهجية الأساسية. فالمبلِّغ الإسلامي عن الله سبحانه وتعالى، مُطالب بأن يفهم بأن الإصلاح، والترشيد، والهداية، والدعوة، والتعليم، كما تطرحه نظرية الإسلام الحضارية، تقتضي الوعي على مراتب، ومستويات، ومضامين العلاقات الدعوية، القائمةفي نظرية البلاغ المبين. فلكي يكون هناك بلاغ مبين، كما تطرحه الفلسفة التغييرية القرآنية، علينا أن ندرك بعمق العلاقات المترتبة عن العناصر التالية :

- علاقة الإنسان المستخلَف بالخالق سبحانه وتعالى، الذي خلق الإنسان، والكون، والحياة.. ولهذه العلاقة مراتب يجب وعيها هي : مرتبة التكليف، ومرتبة التوحيد، ومرتبة العبودية، ومرتبة المقاصد، ومرتبة الاستخلاف..
- علاقة الإنسان بأخيه الإنسان في مراتبها التالية : مرتبة الاجتماع، ومرتبة الأمة، ومرتبة الرسالة، ومرتبة الثقافة، ومرتبة الحضارة، ومرتبة التاريخ..
- علاقة الإنسان بالكون في مراتبها التالية : مرتبة التسخير، ومرتبة الإعمار، ومرتبة كشف الآيات، ومرتبة استخدام السنن، ومرتبة المؤاخاة بين الإنسان والكون..

- عـلاقة الإنسان بالحياة في مراتبها التالية : مرتبة فهم الزمن، ومرتبة فهم المتـاع، والعـرض الدنيوي، ومرتبة فهم لحظات العبور، أو كما أثر عن الإمام علي كرم الله وجهه: (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً).

فمن هذه العلاقات الأساسية، تنبني نظرية البلاغ الإسلامي، وتتوحد العلوم لأداء رسالة تبيين أنه الحق تبارك وتعالى. فلكي نقدم بلاغًا إسلاميًا تبشيريًا، وتعليميًا هاديًا، علينا أن نفهم بعمق هذه العلاقات المتناغمة بين عناصر نظرية البلاغ الإسلامي المبين : الخالق تبارك وتعالى، والإنسان، والكون، والحياة..

ب - المحـور التاريخي للبـلاغ المبين

نعني بالمحور التاريخي للبلاغ المبين: مراعاة تاريخ الأمم، والشعوب، ومعرفة ثقافتهم، وعاداتهم، وتقاليدهم، وذلك عندما نبدأ في ممارسة العمل الدعوي، حتى نخاطب الناس من خلال المداخل الطبيعية لاستجاباتهم. والرسول ﷺ كان خبيراً بتاريخ المجتمعات التي كان يمارس عليها الدعوة، والبلاغ المبين، ومن أمثلة هذا الوعي قوله عليه الصلاة والسلام لأصحابه الذين اضطهدوا، آمرًا لهم بالهجرة إلى الحبشة : (**إن بها ملكًا لا يظلم عنده أحد، وهي أرض الصدق، حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه**) [1]. فهذا الوعي التاريخي بشخصية هذا الملك، وعدله، وبالأرض وخاصيتها، إنما يعبر عن إدراك النبي ﷺ لأهمية المحور التاريخي في البلاغ المبين. والوعي التاريخي متحصل من السير في الأرض، والنظر في سنن الأولين، وفي آيات الله في الآفاق والأنفس..

يقول الأستاذ جودت سعيد : (ثم إن الرسول ﷺ نفسه يستخدم آيات الآفاق والأنفس، ليحل المشكلة خارج النصوص. ولا مانع من التذكير بالحديث الذي أكرره كثيراً لما له من الدلالة، والأهمية في هذا الموضوع، موضوع آيات الآفاق، والأنفس..ذلك الحديث الذي يترك فيه الرسول ﷺ الاحتجاج

(١) السيرة النبوية، ابن هشام، القسم الأول، ج ١ - ٢، ط : ٢، السنة : ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م، ص : ٢٩٦.

بسلطانه النبوي، وسلطان ما أوحي إليه، ليتخذ من آيات الآفاق والأنفس دليلاً، وحجة لبيان موضوع معين، وقع الجدال فيه مع صاحبه زياد بن لبيد :

« ذكر ابن كثير في تفسير سورة المائدة الآية ٦٣، وصححه عن الإمام أحمد قال: ذكر النبي ﷺ شيئًا فقال: « **وذاك عند ذهاب العلم** »، قلنا يا رسول الله: كيف يذهب العلم ؟ ونحن نقرأ القرآن، ونقرئه ابناءنا.. وأبناؤنا يقرئون أبناءهم؟! فقال : «**ثكلتك أمك يا ابن لبيد، إن كنت لأراك من أفقه رجل في المدينة. أليس هذه اليهود والنصارى بأيديهم التوراة، والإنجيل، ولا ينتفعون مما فيهما بشيء؟!**» .. هنا يلجأ الرسول ﷺ إلى آيات الآفاق والأنفس ليحسم النزاع، والجدال في آيات الكتاب، وإن آيات الكتاب قد تكف عن أدائها دور العلم، في ظروف معينة، والرسول ﷺ هنا يستشهد بحدث تاريخي واقع أمام العالم جميعًا، لا يمكن أن ينكره أحد. وهذه القوة لآيات الآفاق والأنفس، أشرنا إليها قريبًا حين قلنا: إن دلالتها عالمية، وفوق الأيديولوجيات، ولم يحاول هنا رسول الله ﷺ أن يقول: أنا رسول الله، ولا أنطق عن الهوى، وعليك أن تسلم بما أقول، ولا تجادل فيه. إن هذه الحادثة، والحوار العجيب الذي دار في مطلع الحياة الإسلامية، لعميق الدلالة، وسوف لا يكف عن عطاء ما يحتويه من منهج لا يزال يتألق على مر العصور في أهمية الوقائع في الآفاق والأنفس. وهذا ما أردنا أن نضعه أمام الشباب المسلم ليتأملوا فيه، ليس كحدث جزئي، وإنما كمنهج)[1]*.

---

(١) اقرأ وربك الأكرم، جودت سعيد، ط : ١، السنة : ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م، دار الفكر، دمشق، ص : ٢٢٢ - ٢٢٣

* قول الأستاذ جودت سعيد غفر الله له : « إن الرسول ﷺ نفسه يستخدم آيات الآفاق والأنفس ، ليحل المشكلة خارج النصوص » ، نخشى أن يكون فيه شيء من الالتباس والمغالطة والمجازفة أيضاً ، لأن استخدام آيات الآفاق والأنفس ، وأهمية النظر فيها ، والاستدلال بها ، لايخرج عن عطاء النصوص ، بل النصوص هي التي أرشدت إليه ، ودعت إلى اعتماده ، والاستدلال به ، وتسخيره .

والأعجب من ذلك قول الأستاذ جودت أيضاً : « إن آيات الكتاب قد تكف عن أدائها دور العلم في ظروف معينة » ! أوليس استخدام آيات الأنفس والآفاق ، هو دليل فاعلية آيات الكتاب ، وعدم عطالتها عن أداء دور العلم ؟! - الناشر - .

إننا حقًا لا نستطيع إدراك جهود الرسول ﷺ إلا إذا نظرنا إليها كمناهج متكاملة، وتاملناها كوسائل فاعلة في بناء الحياة الإسلامية.

ج - المحـور الواقـعي للبـــلاغ المبـين

إن الطبيعة البلاغية، والدعوية للرسالة الإسلامية هي التي استدعت الوعي على أحوال الخلق، وطبائعهم، واستعداداتهم، وميولهم، وقدراتهم وذلك بغرض مخاطبتهم بما يطيقون من غير إكراه، ولا تعسف. ومعنى المحور الواقعي للبلاغ المبين هو إدراك معادلات الناس الفردية، والاجتماعية، ومخاطبتهم حسب ظروفهم، ومشاغلهم، واكتساب مفاتيح التعامل مع أوضاعهم كما هي في الواقع المعيش[١]. والنبي عليه الصلاة والسلام، خبير بهذا الجانب من جوانب البلاغ المبين، عارف لأسراره، وخباياه، ومناهجه، ووسائله، وليس أدل على هذا، تتبع منهج النبي عليه الصلاة والسلام في التعامل مع الأفراد والجماعات.

يقول الإمام الشاطبي مقعِّداً لقانون دعوي منهجي، مستخلص من الفقه النبوي :

(النظر فيما يصلح بكل مكلف في نفسه، بحسب وقت دون وقت، وحال دون حال، وشخص دون شخص، إذ النفوس ليست في قبول الأعمال على وزن واحد... فصاحب هذا التحقيق الخاص، رزق نوراً يعرف به النفوس، ومراميها، وتفاوت إدراكها، وقوة تحملها للتكاليف، وصبرها على حمل أعبائها، أو ضعفها، ويعرف التفاتها إلى الحظوظ العاجلة أو عدم التفاتها. فهو يحمل على كل نفس من أحكام النصوص، ما يليق بها، بناء على أن ذلك هو المقصود الشرعي في تلقي التكاليف)[٢].

---

(١) راجع : الدعوة الإسلامية والمعادلة الاجتماعية ، للشيخ الطيب برغوث .

(٢) الموافقات ، ج ٤ ، ص ٤٨ ، بتصرف خفيف .

فهذه قاعدة من قواعد التعاطي مع المنهج البلاغي النبوي، الثاوي في سنته ﷺ وهذه جملة من النماذج الواقعية لهذه المنهجية.

فمن ذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام سئل في أوقات مختلفة عن أفضل الأعمال، وخير الأعمال، وعرف بذلك بعض أوقات من غير سؤال، فأجاب بأجوبة مختلفة، كل واحد منها، لو حمل على إطلاقه، أو عمومه، لاقتضى مع غيره التضاد والتفضيل.

ففي الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام «سئل: أي الأعمال أفضل ؟ قال: **إيمان بالله**. قال: ثم ماذا ؟ قال: **جهاد في سبيل الله**. قال: ثم ماذا ؟ قال: **حج مبرور**»[١] .. «وسئل عليه الصلاة والسلام: أي الأعمال أفضل؟ قال: **الصلاة لوقتها** ، قال: ثم أي؟ قال: **بر الوالدين**. قال: ثم أي؟ قال: **جهاد في سبيل الله**»[٢] .

وفي النسائي عن أبي أمامة قال: أتيت النبي ﷺ فقلت مرني بأمر آخذه عنك. قال : **«عليك بصوم فإنه لا مثيل له»**[٣] .

وفي الصحيح في قول : **«لا إلـــه إلا الله وحده لا شريك له ... إلخ . قال: ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجلٌ عمِل أكثر منه»**[٤] .

وفي الترمذي : **«ليس شيء أكرم على الله من الدعاء»**[٥] ..

وفي البزار : «أي الدعاء أفضل ؟ قال : **دعاء المرء لنفسه**»[٦] ..

وفي الترمذي : **«ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن»**[٧] .

---

(١) رواه الشيخان ، واللفظ لمسلم .
(٢) رواه مسلم .
(٣) رواه النسائي (صحيح النسائي للألباني) .
(٤) متفق عليه .
(٥) رواه الترمذي (صحيح الترمذي للألباني) .
(٦) قال الهيثمي في المجمع : رواه البزار بإسنادين وأحدهما جيِّد .
(٧) رواه الترمذي (صحيح الترمذي) .

وفي البزار : «يا أباذر ألا أدلك على خصلتين هما خفيفتان على الظهر وأثقل في الميزان من غيرهما ؟ عليك بحسن الخلق، وطول الصمت، فوالذي نفسي بيده ما عمل الخلائق بمثلهما»[1] ..

وفي مسلم : «أي المسلمين خير ؟ قال : «من سلم المسلمون من لسانه ويده»[2] .. وفيه : «أي الإسلام خير ؟ قال : تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»[3] .. وفي الصحيح : «وما أعطي أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر»[4] .. وفي البخاري : «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»[5].

ومن الضوابط الدعوية أن يخاطب النّاس بما يفهمون، فقد روي عن علي رضي الله عنه، قوله :

(حدثوا الناس بما يفهمون. أتريدون أن يُكذَّب الله ورسوله)[6].

ويضيف الإمام الشاطبي ضابطاً آخر في عالم البلاغ المبين ، محاولاً تحديد منهجية للتعامل مع العقول ، والأذهان ، والوقائع ، والأزمان ، حسب ما تتطلبه منهجية الدعوة في المنهاج الإسلامي قائلاً : (وضابطه أنك تعرض مسألتك على الشريعة، فإن صحت في ميزانها، فانظر في حال مآلها بالنسبة لحال الزمان وأهله، فإن لم يؤد ذكرها إلى مفسدة، فاعرضها في ذهنك على العقول، فإن قبلتها فلك أن تتكلم فيها ، إما على العموم ، إن كانت مما تقبلها العقول على العموم، وإما على الخصوص إن كانت غير لائقة بالعموم، وإن لم يكن لمسألتك هذا المساغ، فالسكوت عنها هو الجاري على وفق المصلحة الشرعية والعقلية)[7].

(١) قال الهيثمي في المجمع : رواه أبو يعلى والطبراني في الأوسط ، ورجال أبي يعلى ثقات .
(٢) رواه مسلم .
(٣) رواه مسلم .
(٤) رواه البخاري ومسلم .
(٥) رواه البخاري .
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه ، موقوفاً على علي رضي الله عنه .
(٧) الموافقات ، ص ١٩١ .

والذي يتعمق في دراسة الجانب التطبيقي للإسلام، من خلال السيرة النبوية الشريفة، يرى كيف وفق رسول الله ﷺ، في مواجهة مشكلات المجتمع الجاهلي، وكيف كان يتعامل مع النفوس البشرية المتباينة : فكرًا، ومزاجًا، ومكانة. وكيف كان يتدرج بها من مرحلة إلى مرحلة، بصبر وأناة، وحكمة، حتى نقلها من الجاهلية إلى الإسلام.

لقد كان من أبرز خصائص، وسمات المنهج النبوي: «التغيير المتدرج حسب الأولويات» كما افصحت عن ذلك السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وهي تصف منهجية التغيير الإسلامي، التي كانت وراء نجاح الدعوة الإسلامية : «إنما نزل أول ما نزل منه – أي القرآن – سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام، ولو كان أول شئ لا تشربوا الخمر، لقالوا لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل لا تزنوا، لقالوا لا ندع الزنا أبدًا» (رواه البخاري) .

والمسلم اليوم عندما يتأمل عمل النبي ﷺ في التربية والحركة، يجد أن من بين أهم المفاتيح التي فتح بها مغاليق النفس البشرية، وغير بها أوضاع الحياة الاجتماعية : «قدرته الفائقة على فهم النفوس البشرية، والأوضاع الاجتماعية، وإدراك المؤثرات النفسية، والبيئية التي يخضع لها الناس، والتعامل معها على ضوء ذلك الفهم الشمولي العميق» الذي كان خير معين له على طرح الحلول

الجـذرية، للمشـكلات الإنسـانيـة، النفـسيـة، والاجـتـمـاعـيـة، الفـردية، والجماعية.

ولقد أعانه على امتلاك تلك القدرة في فهم النفوس البشرية، والأوضاع الاجتماعية، وإدراك المؤثرات النفسية، والبيئية أمران أساسيان هما :

- الوحي الأعلى.
- والاستعداد الذاتي.

فالوحي الأعلى كان يطلعه به الله سبحانه وتعالى سواء عن طريق جبريل عليه الصلاة والسلام مباشرة، أو عن طريق الإلهام في بعض الأحيان عندما تقصر وسائله الخاصة، في التحري، والتدقيق، ويبدو أن أمرًا مهمًا سيفوته، أو خطرًا كبيرًا سيلحقه، كما في تآمر بني النضير على قتله.. وكما في قصة حاطب بن أبي بلتعة.. وكما في قصة فضالة الذي جاء يريد قتله، وغيرها من الوقائع التي يعلم بها رسول الله ﷺ عن طريق الوحي، فيأخذ حذره منها، ويحتاط لها.

والاستعداد الذاتي : حيث كان عليه الصلاة والسلام يهتم بمعرفة كل صغيرة وكبيرة في المجتمع، الذي يكون فيه، ويكلف أصحابه بإبلاغه ما يصلهم من معلومات وأخبار عن أحوال الناس، وأوضاع المجتمع.

قال القاضي عياض فيما روي عن الحسن بن علي رضي الله عنهما : « ... فيتشاغل بهم - أي الناس - ويشغلهم فيما يصلحهم والأمة، ومن مسالته عنهم وإخبارهم بالذي ينبغي لهم، ويقول : ليبلغ الشاهد منكم الغائب،

وأبلغوني حاجة من لايستطيع إبلاغي حاجته... يكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم، ويحذر الناس ويحترس منهم، من غير أن يطوي عن أحد بشره وخلقه، ويتفقد أصحابه ويسأل الناس عما في الناس».

«ويرسل رجاله المقتدرين إلى الجهات التي يريد معرفة حالها، فيأتونه بالأخبار التي يستعين بها على رسم خططه، وإنفاذ أمره»[1]. ومواجهة أعباء ومسؤوليات الدعوة، والحدب عليها، حتى لا يلحقها الأذى.

فخبرته ﷺ بالنفوس والأوضاع البشرية، وحرصه على متابعة مجريات الأحداث، والإشراف عليها ولو من بعيد، ساعده كثيراً في ضمان قدر هائل من الفاعليه في حركته، لأنها كانت «تتم في الوقت المناسب، وبالكيفية المناسبة»، فلم يكن تستفزه الأحداث، وتضطره إلى المغامرة - رغم كثرتها وإلحاحها - بل كان يتحرك بخطى مدروسة، يستلهم فيها واقع الأفراد والمجتمع والدعوة، وكما تجمعت لديه معطياته عن طريق الوحي الأعلى، والتحرك الذاتي.

---

(١) هذه الدروس القيمة ، نقلتها بتصرف خفيف من كتاب : « الدعوة الإسلامية والمعادلة الاجتماعية » للشيخ الطيب برغوث ، دار البعث للطباعة والنشر ، قسنطينة ، الجزائر ، ط ١ ، السنة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٥م .

الفصل الثاني
المنهج النبوي والتغيير في العصر العالمي

إن الجهد الرائع، الذي بذله العقل المسلم، في ميدان مواجهة خصوم المنهج النبوي، قديمًا وحديثًا، قد أتى أكله بحول الله وقوته، أضعَافًا مضاعفة، لما كان متوقعًا، وهذا فضل من الواحد القهار سبحانه وتعالى. فقد خرجت السنة النبوية منتصرة من صراع مرير، خاضته ضد الهوى، الذي انغرس في نفوس المغرضين، والمناوئين، الذين ما تركوا سبيلاً إلا وسلكوها لمحاربتها، ومحاولة النيل منها. فكان الصراع محتدما على كل الأصعدة : صعيد المنهج والمعرفة، وصعيد مضمون السنة وحمَلَتها، وصعيد فهمها وتطبيقها.

فلم تكن المعركة السُنية - إن صح التعبير - سهلة، وبسيطة، بل كانت شرسة، ومعقدة، وليس أدل على هذا، من ذلك الكم الهائل من الأفكار، والكتابات، التي ظهرت في هذا الحقل المعرفي الإسلامي.

لقد خاضت السُنة تجربتها الأولى في حضور نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام، لا لتترك لنا فقط أحاديثًا وسننًا روّىٰ بها رسولنا عقول الناس، بيانًا وعلمًا وهديًا، ولكن لتخلف لنا أثرًا عظيمًا من آثار الإسلام، وهو تنزيل القرآن إلى أرض الواقع، وتحويله إلى ثقافة اجتماعية أخلاقية وروحية، وسلوكية، وعمرانية. والعجيب حقًا أن تتم عملية التنزيل، في ظرف زمني وجيز، امتد إلى حوالي ثلاثة وعشرين عامًا، وهي حياة الرسول ﷺ بعد البعثة.

ثم خاضت السُنة معركتها الثانية في وجود الصحابة الكرام، والتابعين الأبرار، وتابعي التابعين الأخيار، للتترك لنا تراثًا معرفيًا سُنيًا، وحديثيًا، ظهرت

من خلاله عبقرية العقل المسلم الاجتهادية، والمنهجية، والعقلية، فنشأت بذلك علوم رائعة، ومناهج كفاة في هذا الحقل المعرفي الإسلامي «علوم السنة».. وبعد هذا الزمن الطيب في حياة السُنة النبوية، توالت العهود، ودخلت أمتنا العزيزة في مراحل الضعف والتخلف، ليس عن ركب الحضارة كما يقولون، ولكن عن مستوى القرآن والسنة، فحدث لها ما هو معلوم من واقعنا بالضرورة.

دعونا نقول بأن السُنة النبوية في تطورها التاريخي مرت بقراءتين :

- القراءة النبوية، وتمتاز بانها كانت سلوكًا، وقيمًا، واخلاقًا، وواقعًا مجسداً وقرآنا، يمشي داخل مؤسسات المجتمع وثقافته. ويمكن تسميتها «بالقراءة عن طريق الوحي»، فقد كانت اقوالاً، وافعالاً، وتقريرات كما يعبر عن ذلك علماء الأصول، ولكنها محكومة بمرجعية الوحي، ومعياريته.

- القراءة البشرية العلمائية : واعني بها قراءة الصحابة، والتابعين وتابعي التابعين، وتابعيهم بإحسان، وتمتاز بانها معرفية وعلمية، اي انها اشتغلت بالجانب النظري، والاستدلالي، والبناء الفكري للسنة، وصبها في كتابات، ومؤلفات مثل الموطآت، والمسانيد، والصحاح، والمدونات.. الخ اخذاً بعين الاعتبار الجانب المنهجي منها، وما أنتجته العملية التدوينية من مناهج، وعلوم مثل علم مصطلح الحديث، وعلم الجرح والتعديل، وعلم العلل والرجال، بالإضافة إلى استخدام مناهج التاريخ، ومناهج السير في الأرض.

وظيفة السنة النبوية في البناء الحضاري

ماهي وظيفة السنة النبوية في البناء الحضاري الحديث ؟

يبدو والله أعلم أن هذا السؤال من أخطر الأسئلة التي تواجه حركة البناء

الحضاري الحديثة لأسباب منها :

- أن عملية البناء الحضاري المقصودة هنا، هي التي تدور في إطار المرجعية الإسلامية. وهذه الأخيرة تنبني على الوحي الأعلى - قرآنا وسنة - ولهذا فمن اللازم ابتداء أن يتفاعل العقل المسلم، مع هذا الإطار المرجعي الأم، الذي بدونه تصبح عملية البناء الحضاري، لا علاقة لها بالمجتمع الإسلامي، وبالثقافة التوحيدية.

- إن عملية التعامل مع الوحي، تتم عن طريق مفتاح السنة النبوية المطهرة، فبالإضافة إلى كون السنة وحيًا مبينًا للقرآن، وموضحًا له، وكاشفًا لأسراره، وسننه، وخيراته، وأحكامه، فهي كذلك مدخل مفتاحي، لتحقيق الوعي على القرآن، وبدونها يتعذر التعامل الحقيقي، والصحيح معه.

فالتلازم بين البناء الحضاري، والسنة النبوية المطهرة، على جميع المستويات تلازم ابتدائي، بمعنى أنه لايمكن الحديث عن البناء الحضاري، وإحداث تغيير اجتماعي، في واقع الناس النفسي، والاجتماعي، بمعزل عن السنة النبوية المطهرة؛ فهي الأساس الذي لا يمكن أن تقوم بدونه عملية تغييرية، تنتمي إلى الثقافة التوحيدية. كما أن الحديث عن السنة النبوية سيبقى نظريًا، وجذبيًا فرديًا ما لم يتحول إلى قوة دينامية، تحرك طاقات المجتمع، وتوجهها لممارسة عمليات البناء الحضاري، من أجل تحقيق مقاصد حددها المولى تبارك وتعالى في كتابه العزيز الحكيم ، ووضحتها السنة النبوية المطهرة، في ثنايا توجيهاتها، وسننها المضطردة.

من سنن البناء الحضاري

فالاقتضاء الابتدائي في التركيب الإلهي للدعوة العالمية الإسلامية، وللرسالة

النبوية الخاتمة، استدعى التلازم المطلق، بين السنة النبوية المطهرة، والقرآن الكريم، من جهة، واستوجب التلازم المطلق، كذلك بين السنة النبوية، والبناء الحضاري، الذي غايته القصوى هي تحقيق مقاصد الشارع في الخلق من جهة أخرى (الإستخلاف والمحافظة على الكون). ومن هنا كانت رسالة الرسول ﷺ (السنة) مُؤلفة بين بنائية القرآن الكريم ، وغاية الخلق الكلية (كل البشر)، على المستوى النظري، ومُفاعلة بين وظيفة القرآن ورسالته، وبين البناء الاجتماعي للحياة الإنسانية، وواقعات الوجود البشري على المستوى العملي.. أعني أن السنة تؤدي دورين:

الأول : على الصعيد المفاهيمي الذي يساهم في توضيح، وكشف المرجعية الكبرى للناس، من خلال رؤية الوحي: للكون والحياة والإنسان.

والثاني: عملي توجيهي، يتمثل في ربط الحياة الإنسانية ، والوقائع البشرية، بالأصل المرجعي، الذي هو (النظام التوحيدي) الكامل الشامل، الذي ختم على يد سيدنا محمد ﷺ .

فالسُنة هي «الموحد» الواقعي بين خطاب الشارع الحكيم، ومقاصده، وبين حاجات الخلق، ورغباتهم في الهدى ، وتحقيق مصالحهم (البناء الحضاري)، ومظهر هذا التوحيد والمفاعلة بين (الوحي) و(الخلق) في إطار العلاقة الموجودة بينهما (الاستخلاف) هو الحضارة الإسلامية، التي بناها الرسول ﷺ ، وواصلتها أمته إلى ما شاء الله من الزمن، قبل أن تتطلب الظروف حديثًا جديداً عن بناء حضاري جديد . ولهذا فالحديث عن البناء الجديد، يقتضي بالضرورة المطلقة الحديث عن الموحد الأول ، والمنشئ الأول للتجربة الحضارية الإسلامية، أعني (السنة النبوية المطهرة) كناظم ، وضابط لحركة البناء الحضاري، من أجل تحقيق مقاصد الشريعة في الخلق ، وإحداث التوازن الاجتماعي من جديد في الواقع الإنساني المعضل . .

المنهج النبوي والعصر العالمي

فإذا كانت هذه هي رسالة السنة النبوية المطهرة، فكيف تقوم بهذه الوظيفة في ظل العصر العالمي المعيش؟

فعندما نطرح فكرة العصر العالمي، فإنما نعني بها مجمل التطورات العقلية، والمنهجية، والروحية، والسلوكية، التي ساهمت في نقل البشر من مرحلة تاريخية حضارية سابقة، إلى مرحلة تاريخية حضارية جديدة، والتي فرضت على البشر الدخول إلى العصر العالمي، بكل ما فيه من تطور صناعي، وتكنولوجي، وثقافي، وأخلاقي، ومنهجي، وبكل ما فيه من مشكلات خطيرة على الصعيد المفاهيمي، والمناهجي، والمعرفي، والتي ستؤثر في صيرورة البشرية فوق الكوكب الأرضي. ولهذا تظهر حتمية، وإلزامية التفكير في احتمالات الاستحالة على الصعيد الاجتماعي، والحضاري، وما سينجم عن ذلك من مواقف إنسانية، قد تضع البشر جميعًا في لحظة حرجة من تطورهم في (نقطة الاختيار الكلي) الذي لا يحتمل إلا وجهتين: إما سلامة البشرية، ونموها باتجاه الحق تبارك وتعالى، أو انهيارها، وتماديها على طريق الغي، والظلم، والصلف الذي سيؤدي إلى انتقام السنن الإلهية حتمًا .

خصائص الواقع العالمي الراهن

من اللازم منهجيًا في هذا العمل أن نقوم بمحاولة لتحديد خصائص الواقع العالمي الراهن، الذي يفترض أن تقوم فيه السنة النبوية بعملية توجيه كبرى، بهدف تحقيق تغيير حضاري أصيل، يساهم في إنجاز البناء الحضاري المنشود للبشرية كافة .

فمن الضروري أن نقوم بتحديد خصائص «الواقع العالمي المعاصر» في شقيه الإسلامي، وغير الإسلامي، لأن العجز عن القيام بهذا العمل سوف يؤثر في طبيعة الأفكار التي نريد إيصالها من خلال هذا الجهد المتواضع. فالربط المنهجي بين الرؤية التغييرية الإسلامية، ومنهجيتها في التوجيه، وبين الوعي على الواقع العالمي الراهن، أمر أساس وحاسم في نجاح الجهود الراهنة في حقل البناء الحضاري، بمعنى أنه سوف يكون من العسير علينا فهم «السنة النبوية، كمركب حضاري» والوصول إلى كشف نظامها الفكري، والتوجيهي لحركة المجتمع، دون إدراك موضوعي، لطبيعة العصر، وخصائصة. فهذا الوعي على الواقع هو الذي سنؤسس عليه منهجنا الادائي المتصل بحياة الناس، التي يراد تنزيل الشرع الإلهي عليها. واخذها بالخطاب الرباني، الذي جاء ليحقق مصالح البشر في الدارين.

فوعي الواقع القائم شرط من شروط توجيهه، والتأثير في حركته بما يتوافق وعقيدة المجتمع.

إننا لا نهدف هنا إلى بحث مفهوم الواقع المعاصر من الوجهة اللغوية، ولا المصطلحية، التي تشتغل بالمعنى الساكن للمفاهيم، ولكن سنحاول تحديد مضمون هذا الواقع، وخصائصه الملازمة له من وجهة نظر من يريد أن ينجز مشروعاً حضارياً في حقل اجتماعي، وثقافي مترامي الأطراف (كالأمة الإسلامية مثلاً).

ملاحظة عن فهم الواقع

عندما يعاني الإنسان مازق تنزيل الافكار إلى أرض الواقع في ظل وسط بشري معضل، يحس ساعتها بقيمة وعي الواقع، كشرط من شروط التنزيل الأساسية. فمراعاة واقع الناس لازمة من لوازم التطبيق الأحسن للشريعة الإسلامية، وقانون من قوانين البناء الحضاري المستقيم، وسنة من سنن الله في

خلقه، من أخلَّ بها فقد أخل بمصالح العباد، التي جاءت الشريعة لتثبتها ، وتوضحها ، وتحافظ عليها، مع مراعاة ظاهرة تغير الواقع في الزمان والمكان، وهذا ما يتطلب الوعي المستمر عليه.

ففي دراسة أي واقع، يجب أن نؤكد على أن هناك أموراً إيجابية، يمكن الإستفادة منها في واقعها الأصلي، ومنها ماهو سلبي، يجب التخلص منه، وتغييره بما يتناسب والعيش في ظل النموذج الحياتي الإسلامي. والأمور السلبية والإيجابية، قد تختلط على الناس، فيصبح الزبد في مقام ما ينفع الناس، ويتحول في أذهانهم ما ينفعهم إلى زبد، يجب استئصاله ، وتكثر أضراب هذه المشكلات عندما يصاب المجتمع بفقر إلى الفهم، والوعي، والإبداع. وفي هذه المراحل التاريخية، تختل موازين العمل، ومقاييس الجهد النافع ، ويصبح التزييف والعبث، واللهو من التجارات الرابحة في حياة الخلق. فكم من خير عميم توارئ تحت نظارة سياسي جاهل، أو صاحب عمامة متمشيخ، أو دكتور صنعته الشهادة، أو داعية مصاب بالشذوذ الفكري، أو رجل يسعى إلى بناء مجده على حساب المستضعفين في الأرض.

فكل إنسان من الناس له نظارة يتصور بها الأشياء ، ويقوِّم بها الأمور. فالعلماء والرعاة، والرعية من أصحاب النظارات، ولكن النظارات في أوساط العلماء كثيرة، ومتنوعة.. ونفس الشيء في أوساط الرعاة، وكذا في أوساط الجماهير. فقد تجد في المستويات الثلاثة من يمتلكون نظارات صافية نقية خالصة لوجه الله، ومنهم من يمتلك نظارة مزيفة مشوبة مشوشة، ولأن كل نظارة من هذه النظارات تتصل في تشكيلها، وبنائها، ووظيفتها بما يدور في العقول من وعي وفهم، وقدرة، وما يعشش في القلوب من إيمان، وأشواق، ومبررات، وما تشع به الجوارح من خير، وعمل، وسلوك... وكذلك لأن الأمر متصل بما تفرزه حركة المجتمع من ثقافة، وتاريخ، ومناهج، فإننا في هذه الحالة مضطرين من

الوجهة المنهجية الصارمة إلى البحث في الأصول التكوينية للأشياء ، والأفكار.. وعليه في فهم الواقع، من العودة إلى الجذر التكويني للسلوك البشري ، وبالتالي الدخول إلى (مخابر صناعة الحضارة) حيث كهوف المنهج وشعابه المعقدة .

إن دراسة الواقع الإنساني، لم تصبح بعد علمًا قائمًا بذاته في عالمنا الإسلامي الحديث.. وأعني بدراسة الواقع، اكتساب رؤية منهجية في دراسة الأحداث والمشكلات، أي دراسة حركة الخلق، ووجهتها الحضارية، ومعرفة مواقفهم من القضايا التي تواجههم، وإمكاناتهم الفكرية، والعقلية، والروحية، والسلوكية، والجسدية، ومعرفة أوضاعهم السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والتربوية، والعسكرية. وإدراك كل ما يتعلق بحياتهم الفردية، والجماعية، بشروط قيامها وبعوامل انهيارها، وكذلك ما يتصل بعلاقاتهم مع الخالق سبحانه وتعالى، ومع بعضهم بعضًا، ومع الكون المحيط بهم.

ونحن هنا لا تهمنا الكثير من هذه العناصر، فغرضنا هو تحديد الخصائص الواقعية العامة، التي تتصف بها حياة أمتنا الإسلامية، وأمتنا الإنسانية، وبعبارة أخرى التعرف على طبيعة المرحلة الحضارية التي تجتازها البشرية، ومدى تأثير هذه الطبيعة في أي حركة تغييرية، تقوم اليوم في العالم، ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين.

من خصائص الواقع العالمي القائم

إن المتأمل المتعمق في واقعنا الإسلامي الراهن، سوف يلاحظ كل أصناف الفوضى، والتسيب، والانهيار. فالتجزئة المشينة للأمة، والتشتيت المخطط لطاقاتها، والقهر السياسي، والفقر، والحرمان، والجهل، والأمية، والتخلف، والبطالة، والتبطل، والتبعية، والعلمانية، والعصبيات القبلية، والنعرات الثقافية،

وحب الدنيا وكراهية الموت، والصراعات الداخلية، والإقليمية، والصراع الثقافي، والفكري، والمديونية، والهزيمة النفسية، والضعف الفكري . كل هذه الأمراض التي تطبع حياتنا، تؤثر بشكل مباشر في أي جهد تغييري، نريد أن نقوم به لصالح حفظ مصالح العباد، وحمايتهم من الظلم والخوف، والاستبداد.

إن مانصبوا إليه هنا ليس هو تشريح هذه الأمراض، ودراستها بشكل مخبري علمي، فهذا مجال آخر ، وإنما نسعى إلى تحديد الخصائص العامة للواقع البشري بمقدار ما يجلي الأفكار التي نعرضها، ولهذا فسوف نذكر بعض هذه الميزات الأساسية في هذه العناصر:

خاصيــة العالميــة

هذه هي إحدى الخصائص الأساسية والمهمة، التي تطبع الواقع الإنساني القائم، ويبدو أن كل تغيير حضاري يتجاوزها سوف يبقى مراوحاً في مكانه مهما بدت لياقته في بعض مراحل السير، ونحن كأمة بحاجة إلى وعي هذه الفكرة بشكل عميق. لأن أصلها التكويني يمتد إلى طبيعة المذهبية الإسلامية في تشكيلها النهائي « القرآنية » . فختم النبوة معناه عالمية الحضارة الإسلامية، وثقافتها التوحيدية ، ومعناه كذلك « الظهور الحضاري » للدين الحق ، ولكن ما يلاحظ اليوم هو أن المسلم غافل عن هذه الحقائق الكونية الكبرى؛ وأن غيره من الأمم، والحضارات تطرح أفكارها في سوق الحضارة، وتروج لها بشكل فعال جداً، حتى أصبح ادعاء « عالمية الحضارة الغربية »، من حقائق التاريخ البشري المعاصر التي يروج لها حتى بعض أبناء الأمة. فالطرح الذي تقدمه الحضارة الغربية لفكرة عالمية الحضارة، لا يخدم بأي حال من الأحوال فكرة عالمية الحضارة، كما يريد الإسلام تقديمها للبشرية؛ بل تعاديها وتحاربها دون هوادة.

فنحن كامة، نؤمن بفكرة العالمية للحضارة، من منظور الظهور الكلي للدين الحق، الذي سيحقق مصالح العباد في الدارين، كما أننا نعلم يقيناً بأن طرح فكرة العالمية – إسلاميًّا – هو البديل الحضاري الذي بمقدوره حل الأزمة الإنسانية الراهنة، على جميع الأصعدة.

(لقد رفعت الحضارة الغربية طاقة الإنسان إلى مستوى غير مألوف، وعندما وصلت هذه الطاقة إلى درجتها تلك، قلبت كل حقائق التاريخ، وأدخلت فيه عنصر قوة، يطبعه بطابع الشمول، وبذا وجدت الشعوب جميعاً نفسها وكأنما تقلها سفينة واحدة إلى مصير واحد. فهي شيئًا فشيئًا بفضل التطورات الصناعية الحديثة، وبخاصة في الميدان الذري، بات عليها أن تجتاز مجتمعة بعض المراحل الحاسمة وأن تعالج مشتركة بعض المراحل الجوهرية. وهكذا نرى أن تحلل المادة يتفق مع التجمع الإنساني، إذ لم تعد هناك جزيرة الفردوس التي يمكن للإنسان ان يعيش فيها منعزلاً عن تيارات الأحداث. لقد صنعت الحضارة الغربية عالمًا يترابط فيه الناس ويتعرفون فيه على الخير والشر، وقد يؤثر عامل القوة في كلا الاتجاهين دون تمييز، كأنه قوة عمياء لم يتحدد توجيهها « ... » وهو بقلبه للأوضاع التي سبق أن خلقها ، لم يكف عن ان ينمي عجينته الهائلة، حيث أوجد فيه جميع عناصر الأزمة النفسية ، والزمنية الراهنة ، في الوقت الذي يفرض فيه جميع ظروف حلها « ... » فالظاهرة هي عالمية الحضارة الغربية، التي تطرد بدافع من قوتها الخاصة « .... » والعالمية في مجراها ليست طرفة تاريخية من مفاجآت التاريخ، وليست اتجاهًا عقليًا أو سياسيًا، وإنما هي ظاهرة القرن العشرين)[1].

لنحاول الرجوع بهذا التحديد إلى أصوله، إلى ما قبل هذا التاريخ، رغم أن

---

(١) فكرة الافريقية الأسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ ، مالك بن نبي ، ترجمة : عبد الصبور شاهين، السنة: ١٤٠٢هـ – ١٩٨١م ، دار الفكر – دمشق ، ص : ٢٥٨ – ٢٥٩ – ٢٦٠ ، بتصرف خفيف .

هذه هي المرحلة التي بدأت تظهر فيها فكرة العالمية، كطرح مؤسسي اجتماعي. فالعالمية التي نعنيها هي طور آخر من أطوار الوجود البشري، فوق الكوكب الأرضي.. والواقع الراهن بظروفه، سوف يتيح لنا إخراج الفكرة إلى حيز الواقع بعد أن دامت قروناً متطاولة في حيز القوة، تنتظر لحظات التاريخ الكبرى كاللحظة التي تعيشها البشرية اليوم مثلاً.

فكرة العالمية وختم النبوة

في الحقيقة وكما ذكرت فيما سبق بأن فكرة عالمية الحضارة متصلة مباشرة بفكرة «ختم النبوة»، ودلالتها على الصعيد المنهجي، والفكري، والعملي، لفهم المسلم لرسالته بصورة خاصة، وفهمه لحركة العالم، ومآليته بشكل عام. فمن الدلالات الأساسية لختم النبوة ما ذكره العلامة إقبال، رحمه الله:

(إن مولد الإسلام هو مولد العقل الاستدلالي، وأن النبوة لتبلغ كمالها الأخير، في إدراكها العميق لاستحالة بقاء الإنسانية معتمدة إلى الأبد على مقود تقاد منه، وأن الإنسان لكي يحصل على معرفته بنفسه، ينبغي أن يترك ليعتمد في النهاية على وسائله هو)[1]*. ويقول الأستاذ جودت سعيد - حفظه الله -: (يمكن النظر إلى ختم النبوة من جانب آخر على أنها فكرة تعلن انتهاء الدورات الحضارية... وبانتهاء النبوة، وختمها، انتهت الدورات، وأمسك الإنسان بسنن الحضارة ليجعلها مستمرة... فمعنى ختم النبوة: ختم الدورة الحضارية.. والميزة الأخرى لمحمد ﷺ أنه للناس كافة، وهذه هي عالمية الحضارة، وانتهاء زمن الدورات، وإن كنا لانزال نعيش دورة الحضارة، وتعددها، إلا أن إرهاصات زوالها بدأت تبرز لمن تامل)[2].

---

(١) تجديد التفكير الديني في الإسلام، محمد إقبال، ترجمة: محمود عباس، ط:٢، السنة:١٩٦٨م، ص: ١٤٤

(٢) اقرأ وربك الأكرم، ص: ٢٢٥-٢٢٦.

* يخشى أن يؤدي الكلام على إطلاقه، إلى التوهم بأن الانسان، بعقله الاستدلالي، الذي أشار إقبال إلى مولده بختم النبوة، وبلوغ كمالها، يؤدي إلى الاستغناء عن عطاء الوحي، ليقوم العقل مقامه، وهذا اتجاه خطير، لابد من تقييده بمرجعية الوحي لدرء أي التبّاس. (الناشر)

إن ختم النبوة إعلان رسمي على انطلاق عهد الجهاد الحضاري الطويل، وبداية عصر البحث عن البرهان الواقعي، والعملي على فكرة عالمية الإسلام، التي تقررت في عالم العقيدة الإسلامي كأساس من أسس الدعوة التوحيدية .

إننا في واقعنا الراهن نعيش معطيات العصر العالمي، ولكن يبدو أننا لم نفكر بعد، كما لم تفكر الحضارة الغربية بجد في موضوع العصر العالمي، وشروط العيش فيه : (فالحضارة أصبحت مع الثقافة الغربية، هدفًامقصودًا، وعملاً شعوريًا، وفنًا، ووظيفة تتطلب ذكاءه، وإرادته وهو يرى فيها غايته الأرضية. هذه الذاتية الجديدة، قد وسعت أولاً حقل الحضارة نفسها ، حين مدته من النطاق القومي، والعنصري إلى النطاق العالمي، والإنساني، ولكن الغرب حين حقق امتداد الحضارة في المكان، بفضل قوته الصناعية، قد أحدث تحولاً في طبيعتها التاريخية... إن منعطف التاريخ الحالي... يجتاز بالإنسانية المرحلة الثانية من تطورها ، بعد التحول الأول، الذي دخلت به في التاريخ في نهاية العصر الحجري الجديد... وهذا التحول قد يغير توقعات التاريخ تغييرًا تامًا بحيث لا يدع مجالاً لافتراض « الأفول » إذ في التوقع الجديد لن يكون هناك أمامنا سوى افتراض الكسوف الكلي، والنهائي الذي لا يمكّن من أن تصاغ « نهضة »... وتلك هي نتيجة توحيد المشكلة الإنسانية... هذا التوحيد الذي أوصل مقدرة الإنسان إلى المستوى العالمي، وهو يتجلى في حياة كل شعب ، وفي تشكيلاته السياسية ، وفي ألوان نشاطه العقلي ، والفني ، والاجتماعي. فالمقاييس، وطرائق السلوك، والتفكير، لا تكف عن التقارب على محور طنجة – جاكرتا، ومحور واشنطن – موسكو)(١).

من هذه التحديدات الأولية، تبدو لنا أهمية فكرة عالمية الحضارة كمشروع حضاري، يطلب منه أن ينقل البشرية إلى طور حياتي جديد على الصعيد العقلي والسلوكي .

---

(١) الأفريقية الآسيوية ، ص : ٢٥٨ – ٢٥٩ – ٢٦٠ بتصرف خفيف .

خاصية العلمية

ومن الخصائص المميزة كذلك للواقع البشري الراهن، خاصية « العلمية ».. وأعني بها أن الحضارة المعاصرة، علمية، يقودها العلم، والعلماء، ولا تتحرك في مواقفها الكلية، والجزئية إلا إذا قدم الخبراء ، والمتخصصون الإشارة الخضراء . « فحضارة العلم » تعني الحضارة التي أصبح التوجيه فيها عن طريق العلم ثقافة، أي ميزة سلوكية تابعة لتشكيلها الثقافي . فالعلم مرسم سلوكيًا ، ويتدخل تلقائيًا في كل شؤون الحياة والمجتمع . فالعلم هو القائد للحضارة.. وفي هذه الحالات، تموت الدروشات، ويضمحل الجهل، ويتراجع التكهن الخرص. وعندما يصبح التوجيه بين يدي العلم، تصبح للفكرة قيمة، ولصاحبها رسالة، يعيش من أجلها. وهذه الرسالة في كل الحالات خاضعة لعقيدة الإنسان، وفلسفته في الحياة.. وبشكل عام، تمثل العلمية الطاقة الخلاقة التي فتقت الخيرات المركوزة في البشر، فوصلوا إلى ما وصلوا إليه من الدقة، والإتقان، واستطاعوا أن يتحكموا في الكثير من سنن الله في الخلق. « فالعلمية » هي الضوء الخافت الذي ينساب بين دروب الجهل، ليتحول إلى نور ساطع ينير طريق السائرين في الكون إن تدبروا، وفقهوا، ووعوا ولكنها قد تتحول إلى مرض عضال تسقط الحضارات العملاقة، وذلك عندما تمسكها الأيدي التي لا تعرف قيمتها.!! تمامًا كما يحدث هذه الأيام عند أصحاب الحضارة المعاصرة .

خاصية العملية

العمل في الحقيقة هو محرك الطاقة الحيوية للبشر ، وإذا انتفى العمل انتفت معه الحضارة البشرية. فالعبادة عمل، وعمران الكون عمل، والتفكير عمل، وإنقاذ الخلق من الظلمات إلى النور عمل، والتعارف بين الناس عمل، والبحث

عن المعاش عمل، ونحن لا نقصد هنا هذه القيمة المطلقة للعمل، كشيء فطري تكويني في الخلق، وإنما نعني «بالعملية» ارتباط الفكر بساحات الأداء البشري المعضل، واتصال المعارف بالتجربة والتطبيق. فالواقع الراهن يؤمن بالحركة العملية، فهو لم يعد شغوفًا بالفلسفة النظرية ، والعمل هو الذي يعطي للأفكار قيمتها ، وإشعاعها، ويبرهن على عبقرية الجهد الإنساني الواقعية.

إن استحكام هذه الخاصية في الحياة العقلية ، والثقافية للحضارة المعاصرة ، وفي السلوك العام للإنسان، مكنه من امتلاك المنطلق العملي الذي يجعله يربط الفكرة بالواقع ، ويربط العمل بوسائله الكفاة بشكل فعال ، ومؤثر . ويصل الكيفيات المنهجية بالغايات البشرية . لقد أصبح لكل جهد إنساني مقياس واقعي واضح يحكمه . فالعملية كذلك تعني (كيفية ارتباط العمل بوسائله ومعانيه، وذلك حتى لا نستسهل أو نستصعب شيئًا بغير مقياس يستمد من واقع الوسط الاجتماعي، وما يشتمل عليه من إمكانات)(١). كما تعني كذلك امتلاك (الضابط الذي يربط بين عمل وهدفه . . بين سياسة ووسائلها . . بين ثقافة ومثلها . . بين فكرة وتحقيقها)(٢).

خاصية التخصص

لقد كان لخاصيتي العلمية والعملية، دور بالغ الأثر في طبع الواقع العالمي الراهن بميزة التخصص الدقيق في كل شيء. فعلى صعيد المعرفة مثلاً تفرعت المعارف، وتخصصت بشكل لم يكن يتصوره «دور كايم» ، وهو يقدم ملاحظاته في موضوع علم الاجتماع ، فقد تعب كثيراً في موضوع

---

(١) شروط النهضة ، مالك بن نبي ، ترجمة : عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين ، السنة : ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، ص : ٩٥.

(٢) المرجع نفسه ، ص: ٩٦ .

التسميــة نفسه ، واليوم نجد هذا العلم متفرعًا إلى أكثر من سبعين فرعًا، كل واحد منها بحاجة إلى وقت كبير جداً لاستيعابه. لقد انتشر المنطق التخصصي في كل تفاصيل حياتنا العامة، والخاصة، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، والتعليمية، والتربويــة ، والإداريــة . إنـه فيـما يتعلق بهذه الفكـرة بالذات ، نتأســف كثيراً لما يحدث في عالمنا الإسلامي عندما نشاهد متخصصين مطلقين يتكلمون في كل العلوم بلا علم ولا دراية، مازالت تراودهم فكرة الموسوعية التي قضى عليها عصر العالمية، والعلمية، والعملية.

خاصية الواقعية

نحن كثيراً ما نسمع في ثقافتنا الراهنة أصواتًا تذكرنا بعصر الفلسفة الخرافية المشـؤومـة؛ فنسـمع بعضـهـم يقـول: أنت لست واقعي، وأنت خـيـالي، وأنت فيلسوف!.. حالم.!. تهيم في الفراغ، وتعيش في جزيرة حي بني يقظان. وإذا سألت لماذا؟ جاءك الجواب الذي يسقط كل الاعتبارات التي يمكنها أن تدخل في توجيه الواقع إلى الأحسن. فماذا تعني الواقعية في حـياتنا المعاصرة؟ إنها باختصار شديد تعني: الحكمة في التعامل مع وقائع الحياة الإنسانية ، أي توجيه الأعـمال بما يؤدي إلى نجاحـها في إنجاز مهـامـهـا، بدون خسـائر في الأوقات، والجهـود، والطاقات.. تعني النزول إلى أرض الواقع.. إلى أعـمـاقه الواقعيـة.. إدراكه في حالته القائمة، بدون زيادة ولا نقصان، ومعالجته انطلاقًا من طبيعته، وظروفه، ومعطياته..

إن الواقعية في العقل الحضاري المعاصر، خاصية نابعة من ثقافته العامة، ومن تعامله السلوكي مع الأشيـاء. كـمـا أنهـا الوعي التـام، والفـهم الشـامل لشروط، وظروف، ووسـائل، ومناهج، وأسـاليب أداء عـمـل معين. فـهي إعطاء الوقت الكافي لإنضـاج الأفكار، وفـهـم الأحـداث، والمتابعة الواعـيـة لحركـة المجـتـمع،

والإدراك المستوعب لإمكاناته، ونقائصه، وقواه.

خاصية المنهجية

العمل إذا لم يكن خاضعًا لقواعد، وضوابط، ونواظم معيارية، ومعرفية، فإنه لا يسمى منهجيًا . فهو هنا لا يخضع لمنظور استدلالي معين، ولمنطق برهاني منظم، أي لا يصدر عن إطار مرجعي يحكمه، ويوجهه وفق أسس معينة، ولغاية محددة، وبوسيلة مشروعة.

فالمنهجية خاصية من خصائص الخطاب العالمي القائم. فهي وعي على كيفيات إنجاز عمل ما، وفهم لطريق الوصول إلى غرض مطلوب، وفق ترتيبات واضحة ومنظمة. والعقل الحديث ساهم بقسط وافر في تعميق القيمة المنهجية في السلوك الإنساني الراهن، رغم أن موضوع المنهجية كان موجودًا قبل هذا التاريخ بقرون متطاولة. فكل عمل لا يخضع لمنهجية استدلالية أثبتت صحتها سوف لن يجد مكانه في منطقنا العالمي القائم. وكل إقناع لا يصدر عن توجيه منهجي مؤسس، سوف يُرد، فعندما تنعدم الحركة المنهجية في العمل الإنساني يصاب بالعمى، وتظهر فيه الفوضى، وتتملكه الحيرة. فالمنهجية هي برنامج العمل، وخريطة السير، وروح التوجيه ومنطقه الذي يربطه بالواقع.

خاصية التقنية والتكنولوجية

صحيح أن التكنولوجية والتقنية نتاج من منتوجات الوعي البشري في الحقل العلمي ، والمعرفي، والعملي والمنهجي.. إلا أنها تمكنت من تحرير موقعها في عالم القرن العشرين كواحدة من خصائص الحضارة القائمة.

فالحياة البشرية اليوم، مطبوعة بطابع التقنية والتكنولوجية ، التي وحدت

القارات، وقلصت زمن الاتصال والتعامل ، ورفعت درجة الحوار الثقافي بين الحضارات، بشكل لم يكن يتصوره العقل الإنساني قبل هذا التاريخ . فقد حلت الآلة محل الجهد البشري، وأصبحت العلاقات الإنسانية متيسرة بوسائل، وأدوات بسيطة في متناول جميع البشر، وغزت التكنولوجية الدقيقة عالم الناس.

فإذا كان ابن خلدون من قبل قد كتب مؤلفه التاريخي الضخم في أكثر من سبعة مجلدات، وإذا كان معاصرنا أرنولد تويمبي قد انجز عمله الضخم « دراسة للتاريخ » في مايقرب من سبعة آلاف صفحة وقضي فيه أكثر من أربعين عاماً؛ فإن كتابة هذا الكم من المعارف اصبح اليوم ممكنًا في جهاز بسيط يمكن للإنسان أن يحمله معه ، وهكذا دخلت التكنولوجية في تفاصيل حياتنا الخاصة والعامة، ونقلتها إلى طور آخر من أطوار تعاملها مع الحياة والكون والناس ، وأخرجتها من طور قتل الأوقات، وتبديد الطاقات إلى مراحل الاقتصاد في الجهد والوقت، وإلى عالم الدقة ، والإتقان ، والجمال ، في العمل الإنساني.

فالاتصال السلكي واللاسلكي، والحاسوبات الإلكترونية، والأدمغة الصناعية، وأجهزة الذكاء الاصطناعي، والأقمار الصناعية، والتقنيات الاتصالية الحديثة، والمراكب الفضائية، والتكنولوجية العسكرية، والطبية، وكل الأداتية، والتقانية، والألياتية التي نشاهدها في عالم الحضارة المعاصرة هي نتاج طبيعي « للمنطق التكنولوجي » و« للعقل التقني » الذي خلفته النزعة العالمية، والعلمية، والعملية، والتخصصية، والمنهجية في حياة الناس.

لقد أعطت (التكنولوجية)[1] الحديثة للعقل البشري فرصة التفاعل الإيجابي مع سنن الله في الكون والأنفس، وأمدته ببعض وسائل التسخير المادية التي تتطلب استعمالاً أكثر فاعلية لأجهزة التسخير المعنوية: السمع والبصر

---

(١) راجع : دراسة في البناء الحضاري ، « محنة المسلم مع حضارة عصره » ، د : محمود محمد سفر ، كتاب الأمة ، رقم :٢١ ، ط : ١ ، السنة : ١٤٠٩هـ .

والفؤاد والقلب..

والتكنولوجيا اليوم تسير بخطى متسارعة إلى عالم جديد أسماه مستشار الأمن القومي الأمريكي السابق « زبيغنيو بريجنسكي » بـ « العصر التكنتروني ».

المنهج النبوي وقدرته على البناء

ففي ظل هذا الواقع البشري الخطير الذي يستدعي التفكير الجدي في شروط، وموجبات العيش في العصر العالمي الذي سيمتد في مستقبل الحضارة البشرية بشكل واسع، وخاصة في القرن الواحد والعشرين، يتثبت في الأذهان تساؤل مهم هو:

كيف يساهم المنهج النبوي في حل الإشكال العالمي الراهن؟ وبعبارة أخرى: ما هي المساهمة التي سيقدمها المنهج النبوي في مجال البناء الحضاري الجديد؟

فالمعلوم بالضرورة لدى قطاع ضخم من البشرية في الوقت الراهن أن الحياة الإنسانية موسومة بمسحة الشيطان. فالظلم الحضاري هو المنطق الذي يحكم حضارة البشر القائمة، في نفس الوقت الذي يبدو فيه أفق الحضارة، وصانعيها، ضيقًا، ولايحتمل توسيعه – على المستوى المنظور – بشكل يعطي للناس فرصة العيش المشترك في العصر العالمي. فقدرة العقل البشري الراهنة غير قادرة على فهم مقتضيات الانتقال، وموجبات الاستمرار الحضاري، على أساس فطري عادل، يستوعب كل الاتجاهات البشرية القائمة، دون هدر لحاجات الناس العقيدية، والعقلية، مع إلزامية الوعي، بان البشرية لن يصلح حالها ما لم تعد إلى (فطرة الله) التي ركبها سبحانه وتعالى في الأنفس، والآفاق، وفي الكتاب.

إن هذا النوع من الاستيعاب قد أنجزته من قبل (السنة النبوية) بشكل لا يتوهم فيه أحد تغييره إلى الأصلح منه مطلقًا . وهنا تظهر لنا الأهمية القصوى في مجال دراسة المنهج النبوي كمركب حضاري ساهم من قبل في بناء حضارة التوازن الفطري من خلال المفاعلة بين الوحي الأعلى - قرآنا وسنة - وبين حاجة الخلق ، والغاية من وجودهم الأرضي (الاستخلاف والمحافظة على الكون) .

فالمنهج النبوي ليس فقط خطابًا أخلاقيًا - (**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**) - بل هو حركة وعي عقلية، ومنهجية، وروحية، وسلوكية لهذا الخطاب الأخلاقي على الصعيد الاجتماعي، ودراسته في إطار تجربة بناء نموذج حضاري مستوعب للمطلق وللنسبي - أي - مركب على أساس وعي متطلبات الزمان والمكان. لهذا كان (النظام التوحيدي) الأخير « القرآن » أنموذجًا عالميًا مبعوثًا لكافة الخلق ، ولجميع البشر.

ونحن هنا نريد أن نبحث عن ظاهرة المنهج النبوي في هذا المستوى من الوعي، الذي ساهم في تركيب حضارة، بدءًا من تركيب إنسان، وثقافة، ومجتمع، وأمة، في ضوء مذهبية توحيدية، إلهية المصدر، ومن أجل غاية شاءت إرادة الله أن تكون لصالح الإنسان في حياته الدنيا والآخرة.

من أجل قراءة أخرى للسنة

وبعبارة أخرى نريد أن نقوم بقراءة جديدة للسنة النبوية المطهرة تنطلق من قراءتين سابقتين :

- قراءة الرسول ﷺ الأخلاقية، والسلوكية القاصدة إلى وضع أسس البناء الحضاري العالمي، الذي أصبح مصدرًا أساسيًا لفهم القرآن، وتنزيله إلى أرض الواقع (قراءة الوحي) .

- وقراءة بشرية علمائية تمثلت في البناء النظري للنموذج النبوي، وتدوينه، وتسجيله في كتب السنة، والحديث، والفقه، والأصول، والعقيدة، والتاريخ، والجغرافيا، والسياسة الشرعية.. إلخ (قراءة بالعقل). مع العلم بأن القراءة الثانية مستخلصة من التفاعل بين العقل الإسلامي والقراءة الأولى (قراءة الرسولﷺ)، وذلك في ضوء المذهبية التوحيدية. وهذا معناه أن غياب القراءة الاولى، يعني أن أي قراءة لاحقة إلى قيام الساعة مرفوضة في حياة الامة، وأن أي بناء حضاري لا يقوم عليها فهو رد، وغير مقبول مهما كانت نتائجه. فالقراءة النبوية للوحي، وتنزيله إلى أرض الواقع حجة على كل التطور العقلي ، والمنهجي الذي وصلته، وستصله البشرية في مستقبل أيامها، وبعبارة أكثر دقة: أن كل الإنتاج العقلي، والفكري الراهن، مطلوب للمثول بين يدي معيار الوحي الإلهي، الذي تمثل السنة النبوية المطهرة إطاره العملي، الذي أدى فيه الرسولﷺ رسالة البلاغ المبين، كما أمره الله سبحانه وتعالى .

فالقراءة الجديدة محظوظة بشكل عظيم لأنها تقف على خبرة الجيل النبوي الأول، الذي كان في مرحلة التأسيس للنموذج الحضاري التوحيدي، كما تقف على تجربة الجيل الإسلامي الثاني (عصر التدوين ثم العصور التي تلته وساهمت في مواجهة الحملات الشرسة ضد السنة النبوية) الذي كان في جهاد متواصل للحفاظ على الحضارة الإسلامية، ووراثتها بشكل غير مخل بغاياتها، وحقائقها التاريخية.

فهذه القراءة التي ظهرت منذ بوادر الصحوة الإسلامية الحديثة مطالبة بالوعي العميق على القراءتين السابقتين، بالإضافة إلى وعيها على أمرين مهمين:

- طبيعة القراءة الجديدة للسنة النبوية المطهرة، باعتبارها مصدراً لبناء حضاري جديد، بكل ما يتطلبه هذا العمل من فهم للعصر العالمي، وشروط العيش

فيه، والتعامل معه من أجل تغييره لينسجم مع خطاب الشارع الحكيم، ويحقق مقاصده العليا في الخلق.

- منهج، وكيفيات، ومستويات هذه القراءة على الصعيدين النظري والعملي. فهذان هما العملان الحاسمان اللذان يستحقان العناية الكافية من قبل حركة التغيير الإسلامي. إذ عليها أن تثبت فيهما بشكل منهجي. وعندما يتم هذا التلاحم، والتفاعل بين العقل الإسلامي، والسنة النبوية المطهرة في ضوء المعيار التوحيدي، فستظهر للناس القدرة المذهلة للمنهج النبوي في تركيب حضارة جديدة انطلاقًا من تغيير الإنسان، والثقافة، والمجتمع، وإعادة ضبط حركة هذه العناصر الأساسية في البناء الحضاري.

فالمنهج النبوي سوف لن يفهم بالشكل المطلوب، ما لم يقرأ كقوانين اجتماعية، وسنن تاريخية، ومسالك أخلاقية، حكمت حركة التغيير الحضاري الإسلامي الأول الذي أنجز من خلاله الرسول ﷺ بناءاً حضارياً شامخاً، وحقق به عملية (أسلمة حضارية شاملة) للمجتمع الجاهلي، ومكنه من تحرير مكانه في عالم الحضارات. أعني أن المنهج النبوي نفسه يمثل إطاراً - ساحة تاريخية تطبيقية - خصباً لدراسة السنن الإلهية الحاكمة للجهد البشري. ولهذا فتطبيق (منهج السير في الأرض)[1] في دراسته، مجدٍ جداً، لأنه سيتم عن طريق منهجيات (النظر) التي تسعى إلى كشف سنن الهداية الربانية، وقوانين الفطرة الإلهية التي فطر عليها الناس. فالمنهج النبوي، ساحة للتعامل مع عالم الأسباب، وعالم سنن العبادة، والإعمار، والإنقاذ، والتعارف، التى ستوصل الناس إلى تحقيق غاياتهم الدنيوية المتمثلة في (الاستخلاف والمحافظة على الكون)..

---

(١) انظر كتابنا: التغيير الحضاري ومنهج السير في الكون «مخطوط»، واقرأ وربك الأكرم، للأستاذ جودت سعيد.

المنهج النبوي يحدد المأزق العالمي الراهن

إن المنهج النبوي الذي اعتبرناه مدخلاً أساسيًا لأي بناء حضاري، يقوم على أساس (النظام التوحيدي القرآني) ويساهم في تحديد المفتاح المدخلي للبناء الحضاري الجديد. إذ من المعروف في علم الاجتماع التغييري: أن حل أي مشكلة تواجه المجتمع، مهما كان نوعها (ثقافية، أو تاريخية، أو حضارية) مشروط بفقه هذه المشكلة في تركيبها الواقعي، وتشكيلها الاجتماعي، أي كما هي في حياة الناس، دون زيادة ولا نقصان، وهذا التحديد، لابد أن يخضع كما هو معروف كذلك لمنهج علمي أثبت صحته، ولخطوات تحليلية منظمة، تقوم على الملاحظة، والافتراض، والتجريب، والوصول؛ أي استخدام المنهج الاستقرائي، والمنهج الاستنباطي، بغرض الوصول إلى كشف علل الأشياء، والأسباب القابعة وراء وجودها، وفهم قوانين التعامل معها، وعلاجها. وهذا الأمر يتطلب منا أن نبحث في المنهج النبوي، كسبيل لكشف سنن الهداية والترشيد. وهذا الأمر لن يتم لنا في الحقيقة إلا باستقراء كلي لنصوص السنة النبوية، وتحقيق هذه النصوص على صعيد المنهج التاريخي، أي وفق (منهج السير في الأرض والنظر في سنن الهداية الربانية) كما أمر المولى تبارك وتعالى في كتابه العزيز الحكيم. ولتعذر هذا العمل الضخم في مثل هذه البحوث الفردية، سوف نحاول تقديم نموذج تحليلي لنص نبوي، نبين من خلاله الطريقة المقصودة في التحليل، والتي سنقوم بتطبيقها على الكثير من النصوص النبوية في المستقبل بحول الله وقوته.

قال رسول الله ﷺ :

«يوشك أن تداعى الأمم عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها».. قالوا: أو من قلة نحن يومئذ يارسول الله ؟ قال : « لا ؛ بل أنتم كثير ولكنكم غثاء

كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور أعدائكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن». قيل: وما الوهن يارسول الله؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت؟»[1].

إن هذا الحديث النبوي الشريف، يعتبر من المداخل الأساسية التي يمكنها أن تعيننا على التحديد الصحيح، والدقيق لنقطة الانطلاق في التغيير الحضاري الراهن للعالم. فللحديث منطقية منهجية خاصة في تفسير الظاهرة الاجتماعية. فقد تجاوز المراحل التمهيدية ، لما يسمونه البحث العلمي، ثم تخطى مرحلة التجربة، وتوصل إلى استخراج القانون ، الذي يحكم الظاهرة الإنسانية. وهذا التوصل ليس ضرباً من التكهن الخرص، بل وعي مستوعب في عالم الأسباب ، وفهم مستنير للسنن الإلهية، واستخدام ناجح للمنهج الذي يشكل وعياً تاريخياً مستقبلياً، ينتج عن إدراك عميق للنفوس البشرية ، وللحركة الاجتماعية عموماً.

عرض عام لموضوعات الحديث النبوي :

هذا الحديث يشتمل على قضايا، بعضها يتصل بمجتمعنا الإسلامي، وبعضها الآخر، متعلق بغيره من المجتمعات. كما يمثل في جوهره قمة سامقة من قمم الوعي التاريخي على سنن الله في الخلق. لنحاول التعرف على بعض جوانبه التي تهم بحثنا هذا:

أولاً : فهو يحدثنا عن أمم متنوعة، سوف تتكالب على أمتنا – وهذا هو واقعنا اليوم – وهذا التداعي يكون في سياق التدافع الاجتماعي بين النموذج الإسلامي والنماذج الأرضية الأخرى – الغرب واليهود – .

ثانيا : ويصف لنا طبيعة هذا التداعي على هذه الأمة، التي تدين بدين (الحق والحقيقة) ، ويشبهه كتداعي الأكلة إلى قصعتها ، فهذا يدمر عالَم

(١) رواه أبو داوود (صحيح أبي داوود للألباني) .

أفكارها ، وذاك ينسف عالم أشخاصها، وذلك يبدد عالم أشيائها.

ثالثًا : ثم يضعنا أمام حوار صادق بين المجتمع الإسلامي الوليد، الذي كان في أحسن ظروف انسجامه، وفاعليته الاجتماعية في ذلك الوقت، وبين النبي عليه الصلاة والسلام كمرجعية توجيهية ، وتبينية للخطاب الإلهي. إذ نجد المجتمع يستفسر عن سبب هذه الفاجعة الحضارية، التي توشك أن تدرك مجتمعًا ناشئًا. ثم يقدم هذا المجتمع افتراضًا احتماليًا – الصحابة – محاولاً تفسير الظاهرة التي يتحدث عنها رسول الله ﷺ قائلاً : أومن قلة نحن يومئذ يارسول الله؟ وكأنه يريد أن يرجع المسألة بأكملها إلى عالم الكم، وبالضبط إلى (عالم الأشخاص). ولكن النبي عليه الصلاة والسلام، يرد القضية إلى مسارها الحقيقي، بوعي سنني عميق، بعيداً عن عالم الكم قائلاً: «**بل أنتم كثير**». ثم يصف هذه الكثرة بوصف ينزع عنها الفاعلية النفسية، والاجتماعية قائلاً: «**ولكنكم غثاء كغثاء السيل**».. وهذه الحالة في الحقيقة، هي أقصى حالة يعيشها مجتمع إنساني معين. فمليار من البشر لا يستطيعون توفير شروط حياتهم واستمرارهم الحضاري ، ويصبحون لقمة سائغة توجهها مجتمعات سرطانية، تعشش اليوم في قلبها النابض – السرطان اليهودي – وهذا كله لأنهم غثاء. ووضعية الغثائية، من الأمراض النفسية الاجتماعية، التي إذا حلت بثقافة مجتمع ما، أهلكتها، وحولتها إلى مجرد كيان شكلي مهلهل؛ كالثقافة الإسلامية في عصور الانحطاط مثلاً .

رابعاً : ثم بعد هذا يقدم الرسولﷺ العلة الحقيقية للظاهرة المرضية مرجعًا أياها إلى مصدرين أساسيين هما :

– التحولات الجارية في نفسية الأعداء، أي المجتمعات ، والثقافات التي تعادي الإسلام قديمًا وحديثًا (الغرب واليهود) والتي سعت وتسعى إلى إنهاء الوجود الحضاري للإسلام كمعامل حاسم، وأساس في إحداث التوازن

الكوني – اجتماعيًا – ، وهذه التحولات جعلت من هذه النفسيات تكتسب مناعة، وقدرة على مواجهة قوى الأمة ، والعمل للفتك بها «ولينزعن الله من **صدور أعدائكم المهابة منكم»** .

– التغيرات الجارية في نفسية الأمة (فردًا ومجتمعًا) بحيث أصيبت هذه النفسية (بمركب الوهن) الذي أرجعه النبي عليه الصلاة والسلام إلى فاجعة العصور والدهور ، ومعضلة النفوس ، والعقول ، وآفة الحضارات، والثقافات وهي **(حب الدنيا وكراهية الموت)** .

فالنبي عليه الصلاة والسلام أعاد العلة الحقيقية في الحالتين إلى عالم النفوس وإن – صح التعبير – إلى عالم الأفكار، كبديل عن عالم الأشخاص على ما رأى المجتمع الإسلامي. وبالضبط في فكرة الوهن، التي لها علاقة مباشرة مع أجهزة العمل الصالح في الإنسان: العقل والقلب والجوارح. فالعقول جمد علمها، والقلوب فتر إيمانها ، والجوارح تعثر عملها . وكما هو معلوم فإن : العلم والإيمان والعمل، هم الزاد الدائم للحضارة .

خامسًا : ويبدو كذلك بأن الحديث لم يربط تشكل مركب الوهن، بفترة زمنية معينة، ولكنه أعادها إلى جهود أجيال (الوهن الثقافي) والتخلف الحضاري، لتساهم بإرادتها، وتوجيهها، في تشكيل هذا المركب داخل نفسية الفرد، والمجتمع، وثقافتهما على حد سواء. وبواسطة قوانين (التوارث الاجتماعي) للمركبات المرضية في (الحقل الثقافي)، نُقل المرض بشكل تراكمي إلى أن وصل إلى (بدايات العصر العالمي) الذي نعيشه اليوم، عباد الثلث الأخير من القرن العشرين ، وهنا دخلت الإنسانية في منعطف من منعطفات صيرورتها فوق الأرض، فتطلب منها الأمر، نظرة مستوعبة في مشكلاتها، وأزماتها.. والحديث النبوي يقدم وعيًا عميقًا على هذه القضية كما أشرنا سابقًا.

إن (الحديث النبوي)(١) الشريف ، سنة من سنن الله في الخلق ، ورؤية صائبة في المأزق العالمي الراهن الذي تشكل من :

- التحول النفسي الذي تم في نفسية صانعي الحضارة الحديثة ، بما في ذلك الجانب العقلي، والفكري، والمنهجي، والعمراني، والتكنولوجي، والثقافي، والسياسي، والاجتماعي، والتربوي.

- التحول النفسي الذي تم في نفسية الإنسان المسلم بما في ذلك جوانب الفعالية الثقافية الثلاثة: العقل، والقلب، والجوارح.

المنهج النبوي وتوجيه جهود النهوض

فالحديث يقدم المساعدة الأولية اللازمة لبناء حضارة العصر العالمي، وذلك بتحديده للمشكلة الإنسانية المعيشة، ولكن يبدو أن عالم الاجتماع المسلم المشتغل بحقل النهضات - إن وجد أصلاً كعلم جماعي - لم يعر بعد الاهتمام المطلوب للمنهج النبوي، باعتباره مركبًا حضاريًا للطاقة الإنسانية، كما لم يتذوق بعد قيمة هذا الحديث النموذجي الذي نحن بصدد تحليله.

فقد أتاح لنا الحديث فرصة عظيمة، واختصر لنا زمنًا طويلاً، قد نقضي فيه كامة، ويقضي فيه غيرنا من الحضارة القائمة قرونًا متطاولة بعلومهم الإنسانية، والاجتماعية، كيما يصلوا إلى تحقيق النتيجة المذهلة التي توصل إليها الحديث، منذ أربعة عشرة قرنًا. فقد حدد لنا رسول الإنسانيةﷺ موقع المرض العضال الذي خلف حضارتنا، وهو بصدد إسقاط الحضارة الغربية، وقدم لنا منهجًا قاعديًا لتركيب حضاري جديد، يؤهل الإنسانية للدخول إلى العصر العالمي. فهذا الحديث يخدم منهجية عالم التاريخ، وعالم النفس، وعالم الاجتماع، والمفكر المسلم، لانه يوفر عنهم تكاليف تاسيس منهجية لدراسة أزمة الأمة الحضارية على حد تعبير المرحوم مالك بن نبي .

---

(١) راجع المقدمة القيمة التي كتبها الأستاذ عمر عبيد حسنه في كتاب الأمة رقم ٢٦ .

إن في الحديث تعبير صادق وصحيح عن تغيير اجتماعي ونفسي عميق، أصاب النفسية البشرية عموماً (الإسلامية وغير الإسلامية).. فعلى صعيد النفسية الإسلامية، سارت الأزمة على طريق (حب الدنيا وكراهية الموت). وعلى صعيد النفسية غير الإسلامية، نمت العقلية الاستعمارية التي تسعى هذه الأيام إلى نفي الإسلام من العالم تحت تسميات، ومسميات متنوعة مثل (السلام.. والحضارة الغربية العالمية.. والأصولية الإسلامية..).

فالحديث يرى بان المجتمع الإسلامي غثاء، لأنه فقد الشعور برسالته الاجتماعية، التي تاسست على (حب الموت وكراهية الدنيا من أجل الدنيا) كما وضح بان المسلم أصبح من المخلدين للواقع الأرضي الفاني. حيث هبط الكثير من الناس ليعيشوا راضين في فوضى عالم الأشياء. فمعظم مواقف المجتمع الإسلامي أصبحت تدور حول محور (حب الدنيا وكراهية الموت) وذلك هو جوهر (الأزمة الحضارية) التي تمر بها البشرية، بما فيها مجتمعنا الإسلامي، الذي أصيب بالوهن (فلقد كان هذا الحديث ضرباً من التنبؤ والاستحضار: استحضار حالة العالم الإسلامي، بعد أن تتمزق شبكة علاقاته الاجتماعية، اي عندما لا يعود مجتمعاً، بل مجرد تجمعات لا هدف لها كغثاء السيل. ولا ريب أن جيلنا الحاضر يدرك الحديث، اكثر مما يدركه أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، لأنه يصف في مضمونه العالم المستعمر، والعالم القابل للاستعمار، الأمر الذي تعرضنا فيه لتجربة شخصية)[1].

من هنا تتضح لنا أهمية هذا المدخل الذي ساعدنا على تشكيل الجملة السابقة من الملاحظات، وفتح لنا طريق التامل الأعمق. فهذه الطبيعية الدقيقة للأزمة، هي المفتاح، لاي تحول في مجتمعنا الإسلامي الراهن، وفي مجتمعنا البشري القائم. فكل فلسفة للتغيير الحضاري، تتجاوز هذا الوعي تعد جهلاً،

(١) ميلاد مجتمع – شبكة العلاقات الاجتماعية – مالك بن نبي، ترجمة : عبد الصبور شاهين، دار الفكر. دمشق، السنة : ١٩٨١م، ص : ٣٦

وانتحاراً في هذا الميدان الخطير، وخير دليل على صحة هذا الزعم، هو كل المشاريع النهضوية ، التي قامت في عالمنا الإسلامي المعاصر، وكل الأمراض التي رافقت نمو الوجهتين الراسمالية والشيوعية في العالم.

لقد تجاوزت السنة النبوية في وعيها للأزمة الإنسانية الراهنة، العلوم الحديثة بقرون من الوعي، والجهد المخبري الذي سيثبت في النهاية أن حل الأزمة الإنسانية وتاهيلها، لتدخل العصر العالمي، مشروط بعلمها (أنه الحق ولهذا قال المولى تبارك وتعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (فصلت : ٥٣) .

فحل الأزمة ينطلق إذن من عالم النفوس ، ويمتد في عالم المجتمع، ثم ينتشر في عالم الثقافة، وبعدها يدخل إلى عالم التاريخ، ليتحول فيما بعد إلى منهج للسير في الأرض من أجل الاهتداء إلى السنن الإلهية . قال تعالى :

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (النساء : ٢٦) .

وهذه هي رسالة السنة النبوية في حقل البناء الحضاري، حيث تبين منهج كشف السنن، وكيفيات تركيبها لتصبح ثقافة اجتماعية حية، تتجسد فيها قيم الوحي، ومعاييره ، ونظمه الحياتية المتنوعة، والشاملة لحياة الناس الدنيوية، والآخروية.

منطقية السنة النبوية في التعامل مع الظواهر الاجتماعية

إن منطق السنة في التعامل مع الظواهر الاجتماعية منطق متميز، أخذ قوته الاستدلالية، ومنهجه البرهاني من منهج القرآن الكريم، الذي يمتلك حق النظر في الماضي، والحاضر، والمستقبل، وفي كل غيب علمه عند الله سبحانه وتعالى، ويتحكم في هذه الحركة بشكل مستوعب، وصحيح لا ريب فيه مطلقاً. فهو

صبغة الله، ومن أحسن من الله صبغة. وعلى هذا فالسنة النبوية مثلاً عندما تتحدث عن (قصص الأنبياء)، فهي تكشف لنا عن تجارب حضارية عميقة وعن تركيب جوهري للحقيقة الدينية ، مع حوادث الكون، والحياة. ومن هنا يكون لهذا القصص النبوي ، حق كشف السنن، وتوجيه الناس إلى سنن الهداية. فعندما تعطي السنة النبوية حكمًا حضاريًا، وتاريخيًا مضطردًا، فإنما تأخذ حجيتها من الموقف القرآني الكلي، وتعتمد فيما وصلت إليه على استقراء كلي للمنطق القرآني في دراسته للظاهرة التاريخية.. وهذا مثال لذلك، فقد ذكر رسول الله ﷺ :

(ما ظهر الغلول في قوم إلا ألقى في قلوبهم الرعب، ولا فشا الزنا في قوم قط، إلا وكثر فيهم الموت، ولا نقص قوم المكيال والميزان، وإلا قطع عنهم الرزق، ولا حكم قوم بغير الحق، إلا فشا فيهم الدم، ولا ختر بالعهد، إلا سلط الله عليهم العدو)[1].

لنحاول فهم الحديث في منظور منهجي معين. ولتسهيل التحليل نقسم الحديث إلى موضوعات:

- ظهور الغلول (مرض اجتماعي) في مجتمع يؤدي إلى (أزمة نفسية)، من مظاهرها: (إلقاء الرعب في القلوب)، وهذا يؤدي بدوره إلى نتائج حاسمة في غير صالح المجتمع، الذي يمارس هذه الأعمال . فالسبب مرض اجتماعي، والنتيجة أزمة نفسية، تجعل حياة الناس في قلق، وفوضى، وخوف، وهذا صحيح، ومعيش في حياتنا.

- فشو الزنا (مرض أخلاقي) في مجتمع يؤدي إلى (نتيجة كونية تدخل في إطار السنن التكوينية وتساهم في هلاك النسل) وهي حدوث الموت، ومصداق هذا الحديث في هذه الأيام هو مرض «الإيدز».

(١) الموطأ ، موقوفًا على ابن عباس .. قال ابن عبد البر : رويناه متصلاً عنه ، ومثله لا يُقال رأياً .

- نقص المكيال والميزان (مرض اقتصادي) يؤدى إلى (أزمة معاشية) هي انقطاع الرزق، وهذا معناه هلاك الأموال.

- الحكم بغير الحق (مرض سياسي) يؤدي إلى (أزمة أخلاقية) هي التقاتل، والتنازع، وهذا سيؤثر في بقاء النسل ، ويساهم في فشو الدم الذي يخرب به العمران البشري.

- والختر بالعهد (مرض أخلاقي ونفسي) يؤدي إلى (أزمة حربية) وتقاتل وتسلط الأعداء، وبالتالي الخوف، وضياع الأمن، وتعثر الاقتصاد، وانهيار البلاد، وهلاك مصالح العباد، من حفظ للدين، وللعقل، وللنفس، وللنسل، وللأموال.

هذه الثنائيات التي يذكرها الحديث، والتي تمثل سببًا ونتيجة ، ليست مذكورة على سبيل الحصر، وإنما مجرد أمثلة بسيطة للسنن ، التي تتحكم في الظاهرة الاجتماعية في مستواها الأخلاقي، والاجتماعي، والسياسي ، والاقتصادي، والتربوي، والعسكري، والعمراني، والنفسي. اي انه يمس كل حياة الناس، ويرتب نتائج على أكثر من علم، ومنهج وصعيد.

فالحديث يقدم منطقًا معينًا في فهم الحركة التاريخية، والاجتماعية، وبامثلة تمس بعض جوانب الحياة الإنسانية، والروح التي تسري في أحشاء الحديث هي الروح السُننية. بمعنى أنه مبني على أسباب، وقوانين، وسنن مضطردة، لا تتخلف في أي زمان ولا مكان، في حالة توفر الشروط المحددة لكل قضية من القضايا المطروحة. ومن هذا المنطق بالذات، استطاع النبي عليه الصلاة والسلام، بحكمته ، وإحاطته بالأمور ، أن يخترق حدود الزمان ، والمكان ، ليقرر مسألة (الغثاء) التي تعيشها أمتنا اليوم. فهو ليس بالضرورة تكهن خرص، وليس كذلك رجم بالغيب، وإنما تبصر، وفهم. فهو وعي للسنن الإلهية، ولقوانين الحركة التاريخية، وهذا هو المنطق الكلي الذي جاءت السنة النبوية لتثبيته في حياة الناس، وتنبههم عليه، بوعي ، ومن خلال تجارب عملية، ومواقف بشرية،

صنعت أحداث قسم من التاريخ العالمي، هو تاريخ الحضـارة الإسلاميـة ، بكل ما تحمله من خصائص متميزة.

فلو تساءلنا مثلاً عن سبب فشو الغلول، والزنى، ونقص المكيال والميزان، والحكم بغير الحق، والختر بالعهد . . . إلخ، لوجدنا السنة النبوية المطهرة ترسم لنا وعيًا آخر، على صعيد آخر من الأسباب ، والمنطق الاستدلالي ربما يهدينا هذا الحديث إليها: (عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: قال رسول الله ﷺ : **(لاتحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانًا. المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره ، التقوى ههنا** - ويشير إلى صدره ثلاث مرات - **بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم. كل المسلم على المسلم حرام : دمه، وماله، وعرضه)**[1].

فالحسد، والتناجش، والتباغض، والتدابر. . أمراض نفسية، وأخلاقية، تؤدي إلى سلوكيات، وأعمال للجوارح، تؤثر في الحركة الاجتماعية بأكملها. . والبيع على بيع الأخ، والظلم، والخذلان، والكذب، والتحقير. . إلخ أمراض أخرى تصدر عن نفس مريضة، وكل هذه الظواهر السقيمة هي التي تصنع الأزمة داخل المجتمع بعد أن تكون قد كونتها في النفوس، وبالتالي يحدث الانهيار الاجتماعي. والرسول ﷺ يشير إلى مركز الداء العضال، منبهًا إلى مصدره، ومؤشرًا على موقعه الحقيقي (التقوى ههنا) هناك في عالم القلب، والفؤاد، والعقل، والنفس. ولهذا نجده في نفس الحديث، يضع حدودًا أخلاقية لحفظ القلوب، وتزويدها بالضابط الروحي، والناظم الأخلاقي، الذي يلهمها القدرة على الانسجام مع سنن الله في الخلق، (**كل المسلم على المسلم حرام: دمه ، وماله ، وعرضه**). .

---

(١) رواه مسلم.

ولا يتوقف النبيﷺ عند هذا الحد، بل يرسم منهاج الحل للمشكلات، ويعطي التدابير العملية لذلك، وهذا ما نستخلصه من حديث سنني آخر: (عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن رسول اللهﷺ: «من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة.. ومن يسر على معسر، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة .. ومن ستر مسلمًا، ستره الله في الدنيا والآخرة .. والله في عون العبد، ما كان العبد في عون أخيه.. ومن سلك طريقًا يتلمس فيه علمًا، سهل الله له طريقًا إلى الجنة.. وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون الكتاب ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده.. ومن بطّأ به عمله لم يسرع به نسبه)[1].

في هذا الحديث سنن، وقوانين، وتوجيهات تسعى إلى تأسيس القاعدة الأخلاقية للسلوك البشري، وما التوجيهات، والطرق التي قدمها الرسولﷺ في هذا الحديث، بغرض تحقيق الترقي الروحي والسلوكي، إلا مظاهر للغاية الأخلاقية الاجتماعية، التي يقصدها الرسولﷺ. لقد ربط كل فعل بجزاء إلهي لا نظير له. فكما ربط تنفيس الكربة في الدنيا، بجزاء إلهي، هو تنفيسها في الآخرة – وما أعظمه من أمل يعيش من أجله المسلم – فقد ربط التيسير على المعسر، بتيسير الله في الدنيا والآخرة. وهكذا تواصل منطقية السنة في تقديم نظامها البرهاني للحركة التاريخية، ورسم وعيها في شكل نظام منهجي أخلاقي، يمكن تطبيقه في أرض الواقع، وفي حياة الناس، وماغايتها إلا العمل من أجل المحافظة على مقاصد الشارع في الخلق، كما أمر المولى تبارك وتعالى.

---

(١) رواه مسلم.

فالغاية القصوى للسنة، والتي أخذتها من القرآن الكريم، هي السعي إلى (إخراج المكلف عن داعية هواه، حتى يكون عبداً لله اختياراً، كما هو عبد لله اضطراراً)[1].

إن هذا العرض العام لبعض الأحاديث، مكننا على الأقل من اكتشاف المدخل الاولي، الذي يمكن أن نستعمله، من أجل فهم منطقية السنة، ونظامها البرهاني، ومنهجها الاستدلالي، ورؤيتها المنظمة للظواهر الإنسانية، وتعاملها مع عالم الأسباب. فعمق هذه الاحاديث، يعبر عن وعي الرسول ﷺ لسنن الله في الخلق. وعليه فالسنة النبوية المطهرة، ساحة خصبة للسنن الإلهية العاملة في الذكر، والأنفس، والكون.. واكتشافها، وفهمها، وتسخيرها، مطلب شرعي، ولازمة استخلافية، لا تقوم بدونها حياة إنسانية مستقيمة على الطريقة.

السنة النبوية مصدر للثقافة الإسلامية

ولكي نتعامل بشكل جيد، ونافع، مع السنة النبوية المطهرة باعتبارها مركبًا للفعل الحضاري الإسلامي، الذي يراد له أن يعمل على حفظ مقاصد الشارع في الخلق، يجب أن نلاحظ بأن هناك مستويات للتعامل، كما أن هناك منهجيات، وكيفيات، سوف نقوم بعرض عام لها، ضمن هذا العنصر الذي عقدناه لبحث منطقية السنة في تعاملها مع الظاهرة الاجتماعية.

إن السنة النبوية مصدر من مصادر الثقافة الإسلامية. وهذا يؤدي إلى البحث في مستويات الفعل الثقافي، وكيف يتركب في الواقع البشري المعضل. فللثقافة وجهان: الوجه النظري ويمثل البناء التصوري، والمفاهيمي، والمعرفي،

(١) الموافقات، ص: ١٦٨.

والمنهجي للظاهرة الثقافية . والوجه العملي ، ويمثل التشكيل الاجتماعي، والسلوكي للظاهرة. فدراسة أي ثقافة بشرية لابد ان تمر على المستويين السابقين: مستوى الإطار المرجعي، ومستوى الإطار السلوكي. ودراسة أي منهما بمعزل عن الآخر، سوف يجزئ الظاهرة الثقافية، ويفصل شقيها المتلازمين. فكل السلوكيات، والمواقف العملية، والبنى المادية لثقافة ما، إنما يرجع إلى الجذر النظري والمرجعي ، الذي يطبع عالم الثقافة بطابعه، وبنائه الخاص ، المستمد أصلاً من تصورات المجتمع، ومواقفه الكونية، والحياتية.

وما دامت السنة النبوية مصدراً من مصادر الثقافة الإسلامية، فإنها تؤثر في الجانبين معا. وعليه فمن الضروري دراستها من الجانبين كذلك:

- السنة النبوية كمصدر للبناء الثقافي النظري والمرجعي (عالم العقيدة والأخلاق الإسلامية)[1].
- والسنة النبوية كمصدر للنظام السلوكي لدى الأشخاص (عالم السلوك وعالم العمران) .

في المستوي الأول، تظهر لنا مجالات التعامل مع الظاهرة الثقافية التي منها:

- مجال التصور الكوني .
- مجال المفاهيم .
- مجال المنهجية .
- مجال النظرية المعرفية .
- مجال القوانين الثقافية .
- مجال القوانين الأخلاقية .

---

(١) راجع السنة النبوية ومنهجها في بناء المعرفة والحضارة، ندوة عقدت بعمان في ١٥-١٩ ذي القعدة ١٤٠٩هـ الموافق لـ ١٩-٢٢/٦/١٩٨٩م ، ج ١ : ج ٢ . وكيف نتعامل مع السنة . للشيخ يوسف القرضاوي.

- مجال المشروع الاجتماعي .
- ومجال التنظير ، وضوابطه . .

اما في المستوي الثاني للظاهرة الثقافية ، هناك كذلك مجالات للتعامل نذكر منها :

- مجال الواقع الإنساني .
- مجال السلوك البشري .
- مجال الجهد البشري .
- مجال المعاش والعمران البشري .
- ومجال التاريخ، والسير في الأرض.

والسنة النبوية تدخل في توجيه الجانبين معًا، حتى ينسجما مع الخطاب الإلهي، وينضبطا مع القانون الفطري العام الذي جاءت الشريعة لتدل عليه، وتعلم بأنه صبغة الله التي يجب أن يعود إليها البشر في صناعة حياتهم، وتسخير سنن الله من أجل تحقيق السعادة في الدارين.

إن فهمنا للسنة النبوية بهذه الشمولية، وإدراك قدرتها الفائقة على التوجيه في مختلف الأصعدة السابقة، سوف يتيح لنا فرصة التعرف على الخير الإلهي الذي أودعه سبحانه وتعالى في جهد نبيهﷺ كما سيطلعنا على القدرة الذاتية للوعي النبوي المضمن في سننه، التي تمثل الإطار العملي لمقاصد الشارع الحكيم في الخلق، ولحركة تنزيل الخطاب الرباني في صورة موقف اجتماعي، كان من محصلته بناء الإنسان، والمجتمع، والثقافة الإسلامية المعبرة عن حضارة الإسلام في الأرض.

المنهج النبوي ومفهوم التغيير الحضاري

سوف لا نسعى إلى البحث عن مفهوم للتغيير الاجتماعي من وجهة نظر العلوم الاجتماعية، والسلوكية الحديثة، لسبب واحد، هو أنها ليست في العمر الحضاري الذي تعيشه أمتنا عمومًا، والحركة الإسلامية التغييرية خصوصًا. فالموقع العملي للأحداث التي تمر بها الأمة داخليًا، وخارجيًا، مختلف عما يدور في الذهنية الحضارية المعاصرة، ولما تسعى إلى تحقيقه من الأهداف، تبعًا لتصورها الكوني. أعني أن هذه العلوم، وبشكل خاص علم اجتماع التغيير والحضارة، والثقافة، تعيش في عمر حضاري آخر، يتصل بجدلية الحضارة القائمة، وصيرورتها التاريخية الذاتية، التي لا يمكن بأي حال من الأحوال تعميمها، مالم تصبح معارفها معبرة عن القانون الفطري، الذي يحكم الخلق.

ومراعاة اختلاف الأعمار الحضارية، لازمة منهجية في مجال التغيير الاجتماعي، وقد أشار إليها ابن خلدون بذكاء في قوله: (اعلم أن الدولة تنتقل في أطوار مختلفة، وحالات متجددة، ويكتسب القائمون بها في كل طور، خلقًا، من أحوال ذلك الطور ، لايكون مثله في الطور الآخر، لأن الخلق تابع لمزاج الحال الذي هو فيه)[1]. وابن خلدون هنا، يوضح قاعدة مهمة في مستوى الدولة ، يمكننا أن نعممها لتصبح حاكمة للسلوك الحضاري، وهذا ما اكده مالك بن نبي رحمه الله، بقوة في قوله: (وعليه فلا يجوز لأحد وضع الحلول والمناهج، مغفلا مكانة أمته، بل عليه أن تنسجم أفكاره، وعواطفه، وأقواله، وخطواته، مع ما تقتضيه المرحلة التي فيها أمته.. أما أن يستورد حلولاً من الشرق أو الغرب، فإن ذلك تضييعًا للجهد، ومضاعفة للداء. إذ كل تقليد

(١) مقدمة ابن خلدون ، عبد الرحمن محمد بن خلدون ، تحقيق : د: عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر العربية للطباعة والنشر ، ط : ٣، ج : ٢ ، ص : ٥٥٣ - ٥٥٤ ، بتصرف خفيف .

في هذا الميدان، جهل وانتحار.. وعلاج أي مشكلة يرتبط بعوامل زمنية نفسية، ناتجة عن فكرة معينة، تؤرخ ميلادها عمليات التطور الاجتماعي، في حدود الدورة الحضارية التي ندرسها.. فالفرق شاسع بين مشاكل ندرسها ، في إطار الدورة الزمنية الغربية، ومشاكل أخرى تولدت في نطاق الدورة الإسلامية)(١) .

ونفس الموقف نجده عند المفكر السيلاني المسلم البروفيسور عبد المجيد مكين، الذي يرى أنه : (في ظل الطرح الإسلامي، يبدو لنا معيار الوحي، هو المدخل الوحيد لدراسة مشكلات وقضايا الفكر الإسلامي؛ إذ لا تجدي الطريقة العلمية الحديثة شيئًا، في استكناه خبايا الظواهر الإسلامية، ومغازيها الحقيقية، وأبعادها الجوهرية، التي لايمكن فهمها إلا في ضوء معيار الوحي. فالظواهر الإسلامية لا يمكن إدراكها بمعزل عن منهاج الوحي، وسياقه الذاتي. فالطريقة العلمية الحديثة تبقى دومًا مفتقرة إلى عنصر أساسي، هو مخ البحث وروحه؛ وهو من هبات معيار الوحي للباحث المسلم، حيث لن يجد هذا العقل ذاته، ووعيه، إلا ضمن هذا الإطار)(٢).

فعندما أؤكد على هذه القضية، فتأكيدي لا ينفي التعامل مع المناهج الاجتماعية السائدة في الحقل التغييري، وإنما يتطلب الأمر دائمًا أن نستعمل إمكاناتنا العقلية، ومنهجيتنا الذاتية كيما نتجاوز بعض المراحل الخطيرة.. والمنعطف الحضاري الراهن، الذي نعيشه، منعطف من المنعطفات، التي تحتاج إلى تجاوز أصيل، لأننا نعيش في مرحلة التأسيس لعمل نهضوي جديد، سوف يثمر في مستقبل الأمة، وسترى الأجيال اللاحقة عمل أجدادها الذي قاموا فأعلنوا ضرورة العودة إلى مصدر الطاقة الخلاقة، الذي أشع من قبل على الإنسانية، عندما فتح لها طريق التفكير العلمي، الذي يخضع لقواعد منهجية

(١) شروط النهضة ، ص : ٤٧ ، ٤٨ .

(٢) معيار الوحي في الفكر الإسلامي ، البروفيسور عبد المجيد مكين ، ندوة عقدت في اليابان عن قضايا الحضارة الإسلامية واليابان ، طوكيو ، ٢٠ – ٣٠ مارس ١٩٨٠م باللغة الإنجليزية .

ومعيارية اخلاقية ، قصد بها الشارع الحكيم تحقيق مقاصد الخلق في الدارين.

التغيير الحضاري في ضوء وعي المنهج النبوي

إذًا لابد لنا ان نبحث عن معيار آخر، نعرف في ضوئه التغيير الحضاري، ونحدد مضامينه. ولا يمكن ابتداءً ان نعثر على هذا المعيار إلا في إطار (النظام التوحيدي) اعني في معيار الوحي الإلهي، الذي يشتمل على القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

فتحديد مضمون للتغيير الحضاري، لابد ان يتم من خلال استقراء لمقاصد «الوعي التغييري في المنهج النبوي»، وفهم عميق على المنهج التغييري الذي سلكه النبي عليه الصلاة والسلام في عملية البناء الاجتماعي الأولى، أي في (عملية الإسلامية الحضارية الشاملة)[1] الأولى التي حقق بها مرتبة (الأمة) للجماعة الإسلامية المؤسسة للحضارة التوحيدية.

طبيعـــة التغيير الإســـلامي

إننا كلما تعمقنا في فهم الأشياء، وفق نموذج الإيمان التوحيدي، كلما احسسنا بضخامة مسؤوليتنا أمام الله، ثم أمام انفسنا، وأمام التاريخ، وادركنا خطورة واجباتنا امام الواقع الإنساني المعضل، وخاصة في مراحله الراهنة، واطواره المتوقعة. فموقفنا الحضاري اليوم ما زال غامضًا، وبشكل ملح في ميدان قدرتنا على وعي مناهج التعامل مع خطاب الله تبارك وتعالى، وفقه ضرورات استيعابه العملية، أي على المستوى الاجتماعي كمشروع حضاري. وسوف لن يتحقق لنا وعي رسالي اجتماعي، إذا لم ندرك موقفنا الجماعي (كأمة) إزاء

(١) راجع كتابنا « الإسلامية الحضارية الشاملة – مقدمات في المنهج – » مخطوط ».

موضوع وجودنا الحقيقي في هذا العالم الأرضي. أعني موضوع (الاستخلاف) وتبعاته على صعيد العبودية والعمران. وهذا الأمر لن يتم لنا على الوجه المرغوب، إذا لم نفهم موجبات تحصيل «التغيير الاجتماعي» في واقع أمتنا المتردي. فالتغيير اليوم من متطلبات استمرارية الأمة، ومن شروط استعادتها لهيبتها الحضارية، وتمكينها للناس، كيما يسترجعوا ما فقدوا من فطرتهم الخيرة. والحديث عن التغيير هنا لا ينسحب إلى ما رسخه العقل الغربي منذ أربعة قرون؛ القرون التي ولدت فوضى العالم الغربي المنهجية والثقافية الراهنة، ولكن التغيير المنشود هنا هو ذلك الجهد الإنساني، الذي يتيح للناس فرصة توفير موجبات «الوراثة الحضارية» ويعينهم على السَّير السُنني في الكون. فهو تغيير عالمي، علمي، عملي، سيتجه بالإنسانية من «العهد الحضاري» إلى «الطور الاستخلافي»[1] الذي سيعبر عن الفعالية الكونية للتوحيد من الوجهة الاجتماعية، ويفسر المشروع الحضاري للإسلام من الوجهتين النفسية والثقافية، كما سيعلن عن إفلاس المنطق البشري الخاضع لسلطان المستكبرين، ويخلصه من نزعة: «أتعبدون ما تنحتون» ويمده بالقدرة على فهم قيمة ﴿اقرأ باسم ربك﴾ إذ بين القراءة باسم ما ينحتون، والقراءة باسم ربك، فرق كالفرق الموجود بين الكفر والإيمان، والباطل والحق.

(١) راجع كتابنا «الإسلامية الحضارية الشاملة - مقدمات في المنهج - «مخطوط».

الفصل الثالث

المنهج النبوي كمركب حضاري

فرغنا فيما سبق، من الحديث عن بعض الأفكار المتعلقة بالجانب النظري لعملية التغيير، في ضوء المنهج النبوي، وبقي لنا في هذا الفصل أن نقدم تفسيراً نفسياً ثقافياً، واجتماعياً تربوياً، لدور المنهج النبوي في تركيب حضارة، وتوليد أمة في التاريخ هي (الأمة الإسلامية).

ففي كل عمل تغييري، أو توليدي لثقافة حضارية، لابد من فلسفة تغييرية، أو « توليدية » تقوم بتركيب عناصر الاجتماع البشري، لتنتج منها وحدة تاريخية تمثل في جوهرها « المجتمع الوليد »، الذي سيسعى إلى تحقيق رسالة جماعة من الناس، في ظرف زمني معين، استجابة لمذهبية كونية معينة، وبوسائل معينة، ولغاية معينة.

مشكلة توجيه العملية التغييرية

الدارسون لميلاد مجتمع، كحدث تاريخي، والمتتبعون لتلك اللحظات الحية التي تهيئ لنشوء اجتماع بشري رسالي، صادر عن عقيدة تغييرية معينة، تحمل في أحشائها مشروعاً اجتماعياً تغييرياً، يحتاجون في الحقيقة إلى فهم بعض القضايا المتعلقة بجملة من الترتيبات الأولية، ذات الصلة بفلسفة التغيير، ومنهجيته. فانطلاق أي تغيير اجتماعي، مشروط ببعض الموجبات الأساسية، التي تمثل في جوهرها « تحدي » واقعي لحركة التغيير، وعلى رأسها « القيادة التغييرية » التي تحمل « همّ » توجيه العملية التغييرية، بكل ما تحمله هذه المهمة من صعوبات، وابتلاءات متنوعة المصادر، ومختلفة الأشكال، ومتباينة الشدة

والقوة. فالعملية تستدعي وعيًا معينًا، نطلق عليه تسمية «الوعي الانطلاقي» الذي يحتاج إلى نظرية في «التوجيه الانطلاقي» وأعني به (جملة الأفكار، والأعمال، والإجراءات، والخطوات المتعلقة بالإجابة عن هذه التساؤلات: مامضمون النموذج الجديد، الذي ننتمي إليه؟ وماذا نريد من خلاله؟ وكيف نحقق ما نريده؟ وما هي الوسائل المطلوبة لذلك؟ وكيف نتعامل مع الوضع القائم، الذي نريد تغييره؟ وباي منهجية نعالج قضاياه؟ فهذه المجموعة من الاستفسارات، بحاجة إلى مخطط، وبرنامج يحدد كل عنصر من عناصرها، ويقدم له الإجابات النظرية، والعملية الكفيلة بحل إشكالاته، وتحقيق متطلباته.

إن التوجيه في لحظات إنطلاق العملية التغييرية، يختلف حتمًا عن التوجيه الذي سيأتي بعد إنجاز هذه الخطوة، بحيث تطرح فيما بعد، أنواع أخرى من التوجيه منها: «توجيه المحافظة» على ما حققته الحركة التغييرية من منجزات على مختلف الأصعدة التغييرية، ومنها «التحدي الاستيعابي» الذي يقوم بحل مايواجه الحركة داخليًا وخارجيًا من سلوكيات ومواقف، قد تغير مسارها عن مسالكه الصحيحة، ومنها «التوجيه الاستمراري» الذي يهدف إلى دفع الحركة لتستمر في خط سيرها الأصيل، وتدوم في حركتها التغييرية، مهما كانت التحديات.. ومنها «التوجيه التقويمي» الذي يقوم بعمليات التقويم للأزمة، وللأشخاص، والأشياء، والأفكار، في المنعطفات المختلفة للعملية التغييرية.. ومنها «توجيه التوريث للتغيير» بمعنى التفكير في مناهج، وكيفيات، ووسائل توريث الرسالة التغييرية بين الأجيال المختلفة، كيما تواصل الحركة فعلها التغييري دونما انقطاع، وتمرد على الأصول.. ومنها «توجيه تنمية الوعي مع حركة التغيير» وفيها يطلب تجنب تخلف الوعي التغييري عن هموم المجتمع، ومتطلبات المرحلة، وضرورات الزمان والمكان.. إلخ. فكل هذه الأنواع من التوجيه وغيرها بحاجة إلى وعي تام، من قبل القيادة التغييرية على الأقل، كيما تتمكن من

خوض معركة البناء، والتغيير بكفاءة.

فالتوجيه إذن مشكلة من المشكلات الأساسية في أي عمل تغييري، غايته بناء مجتمع على أصول رؤية كونية معينة.

فلسفة البدء والتوجيه الانطلاقي

التوجيه الذي يلزم القيادة التغييرية في لحظات الانطلاق، يعتبر من أقسى التحديات في المجال «المنهجي»، لأن حركة «التحديات» للواقع القائم، ستسعى إلى مخاطبته بنوع جديد من الواجبات والأفكار، التي تختلف كثيراً أو قليلاً عما ألفه من أوضاع؛ وفي القرآن تعبير عميق عن هذا النوع من التحدي، الذي تواجهه المجتمعات القائمة، من قبل قوى التغيير الجديدة، فيكون جوابها ما تعبر عنه هذه الآية بعمق:

قال تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ (الزخرف: ٢٢).

فهذا النوع من الإحساس، والسلوك المضاد لحركة التجديد، إنما مرده إلى النفسية الأثرية، والمقتدية بغير وعي، والمحافظةعلى الوضع القائم الذي ألفته، وتحول عندها إلى ثقافة آبائية مستحكمة. ومن هنا تكون الحركة التغييرية كمن يريد إيقاف أنفاس المجتمع القائم، وقبض روحه القديمة، ولهذا فالمجتمع القائم، يرد بعنف على هذا السلوك، «والمجتمع الجاهلي» الذي عاصر النبي ﷺ خير دليل لهذا النوع من السلوك.

ولكي يكون التوجبه الانطلاقي متماشياً مع قوانين البناء الحضاري، فإن القيادة التغييرية مطالبة بمواجهة، وتوجيه أول عمل على طريق التغيير الاجتماعي وهو: (التحديد الدقيق، والصحيح لموقع المرض، والأزمة القائمة في كل مستوياتها) وعليه فمشكلة أي حركة تغييرية تلك المتصلة بالتاريخ التكويني

لها، هي امتلاك القدرة الكافية على التحديد الإيجابي لموقع، ونوعية المرض، الذي يراد استهدافه بالعلاج؛ إذ الأمراض تختلف، وتتنوع بشكل كبير. فمريض السرطان مثلاً يختلف عن مريض السل، أو فقر الدم على الصعيد البيولوجي، ومريض الثقافة، يختلف تمامًا عن مريض السياسة، أو الاقتصاد، على الصعيد العقلي. وهكذا فالتحذيد مطلوب ولازم، لأنه بهذا العمل الأساسي الأولي تنبني فلسفة الانطلاق في التغيير، ومناهجه، وأهدافه، ووسائله، وطبيعته. والعجز عن آداء هذا العمل المفصلي، سيؤدي حتمًا إلى تضييع الجهود و« تبديدها » خارج دوائر التغيير المطلوب، وربما « تحريفها » عن مسارها الحقيقي، وهذا ما حدث مثلا مع الثورة الفرنسية، التي استأثرت بها جماعة على حساب الفلسفة الانطلاقية، التي قامت الحركة لتحقيقها، ونفس الأمر تقريباًحدث للثورة الإسلامية التحريرية في الجزائر.

فأول نقطة استفهام كبرى تواجه القيادة إذن، في الطور الأول من أطوار التغيير الاجتماعي، هي تقديم الجواب الصحيح، والواضح المعالم، والذي تضبط به مشكلة المجتمع ضبطًا محكمًا، بحيث تعرف طاقاته، وإمكاناته، وقواه المختلفة، وتناقضاته المتنوعة، ونقاط الضعف والقوة فيه، وتدرك مداخل استجابات أفراده، ومفاتيح التعامل مع عقائدهم، وطبائعهم، وعوائدهم، ومواقفهم التي درجوا عليها. والقيادة التغييرية، عندما تقوم بهذا العمل، ليس فقط من أجل التوجيه الخارجي للمجتمع، ولكن وبشكل ملح من أجل التنظيم الذاتي لطاقاتها، وإمكاناتها، وتوجيه مشكلاتها، وحل معضلاتها، وترتيب قواها للمواجهة، والمراجعة، والإقدام، والإحجام..

إن فلسفة البدء في التغيير، وكل ما يتعلق بها من شروط، ومتطلبات، تقوم أصلاً على هذا « التحديد » وتعتمده في صحتها وخطئها. فلا يمكن وضع برنامج ناجح للتوجيه الانطلاقي في مختلف مراحله ومستوياته بدون هذا الوعي

على المشكلة، وامتداداتها التاريخية، والثقافية، والاجتماعية، والسلوكية، والمنهجية..

المغزى الثقافي لميلاد الجماعة التغييرية

إن ميلاد الجماعة في التاريخ، يعني من جهة، ظهور فكرة جديدة، داخل حركة المجتمع، تكون مسنودة في كل الحالات بقيادة تغييرية، ويعني من جهة أخرى، بداية ظهور حركة وجود جديد، ينزع إلى تحدي الوضع القائم، ويسير بشكل معين، لتحقيق غاياته، ومضامين عقيدته، من الناحية الواقعية. بمعنى أن الحركة الجديدة، سوف تؤدي إلى «توليد نموذج تربوي»، لبناء إنسان جديد، يتبنى الفكرة الجديدة، ويعمل من أجل تحقيقها في حياة الناس. وهذا مما سيؤدي إلى وضع نواة بناء اجتماع بشري، يتميز بخصائص ثقافية معينة، مازالت في حيز القوة. فميلاد الجماعة في التاريخ، هو عنوان على بداية دورة حضارية، ذات نزوع عقائدي، مخالف لما هو موجود في لحظات ميلادها. فهذه الجماعة تقوم، وتتحرك، لأنها تشعر بضرورة، وأهمية، وإلزامية حركتها، وذلك بغرض تغيير شرائط واقع، لم يعد قادراً على تقديم دوافع العيش لأفراده، ومؤسساته، وأفكاره المتقادمة، التي تحتاج إلى تجديد، كيما يرتفع وعيها إلى مستوى الأحداث، التي يمر بها «الوعي الجماعي» للمجتمع في صلاته الداخلية والخارجية. ومصيبة «تخلف الوعي»، عن فهم ومعايشة وقائع حركة العالم، من الإصابات المنهجية، التي تعيشها كثير من المجتمعات المعاصرة، والتي منها المجتمع الإسلامي الراهن.

إن ميلاد الجماعة من الوجهة الثقافية، دليل على ظهور منهج جديد للسلوك الاجتماعي، وبروز اتجاه فكري، يحمل قيماً تهدف إلى إعادة بناء المجتمع القائم، وطبعه بطابع آخر، لمّا يتحول بعدُ إلى نظام ثقافي مُولِّد للسلوك، والنشاط

الاجتماعي. فعندما يصبح ثقافة اجتماعية فذلك إعلان، على أن الجماعة قد بدأت رسالتها، ودخلت بذلك إلى ساحة «العمل الحضاري»، وفي هذه الحالة تكون القيادة التغييرية، مطالبة بالتنزيل المستديم لمضمون عقيدتها، ووجهتها الحياتية إلى عالم النفوس أولاً، ثم إلى عالم المجتمع، الذي ينقله بدوره إلى عالم الثقافة، التي تقوم بتغذية جنين الحضارة، وتمده بلوازم النماء، والنمو، والنضج، والاستمرار. فهذا هو ميلاد الجماعة في التاريخ (ولكن عندما نتحدث عن ميلاد معين، فإنا نعرفه ضمناً «كحدث» يسجل ظهور شكل من أشكال الحياة المشتركة كما يسجل نقطة انطلاق لحركة التغيير، التي تتعرض لها الحياة، ويظهر هذا الشكل في صورة نظام جديد للعلاقات بين جماعة معينة.. الجماعة التي تغير دائماً خصائصها، بإنتاج وسائل التغيير، مع علمها بالهدف الذي تسعى إليه من وراء هذا التغيير)[1]. فهذا النظام من العلاقات، هو الذي يشكل المغزى الثقافي للجماعة، التي تريد إنجاز عملية التغيير. «فالتوليد الجماعي المشترك للتاريخ» ليس عملاً عفوياً، بمقدار ما هو جهد خاضع لسنن البناء الحضاري، التي تحكم مقاييس السلوك، داخل عالم الأفكار، والأشخاص، والأشياء. إذ (العمل التاريخي بالضرورة من صنع الأشخاص، والأفكار، والأشياء، جميعاً، ومعنى هذا أنه لا يمكن، أن يتم عمل تاريخي إذا لم تتوفر صلات ضرورية داخل هذه العوالم الثلاثة، لتربط أجزاءها في نطاقها الخاص، وبين هذه العوالم، لتشكل كيانها العام من أجل عمل مشترك... وهذا الشرط يستلزم كنتيجة منطقية وجود عالم رابع هو شبكة العلاقات الاجتماعية)[2]. ونحن نريد أن ندرس المغزى الثقافي لميلاد الجماعة التغييرية في هذا المستوى، وذلك باستيحاء النموذج النبوي، موضوع هذه الدراسة.

(١) ميلاد مجتمع، ص: ١٤ - ١٥ بتصرف خفيف.
(٢) المرجع نفسه، ص: ١٦.

الترشيد النبوي ونموذج التغيير الرسالي

كما أسلفنا القول: فإن أول عمل تؤديه «القيادة التغييرية» على طريق نفي «الخبث الحضاري» هو تحديد موقع المرض الاجتماعي، باعتباره لازمة منهجية في علم التغيير الحضاري.

ومن هنا كان أول عمل أنجزته القيادة النبوية بدقة بارعة، وإيجابية كاملة، وبترشيد واعٍ، هو إدراك طبيعة المشكلة، التي كانت تعشش في النفسية الجاهلية، وفي أعماق العالم الثقافي المعاصر للرسولﷺ. لقد أدركها عليه الصلاة والسلام بشكل مستوعب، استوفى شروط التحديد المنهجي العميق؛ وهذا الأمر يتبدى لنا بجلاء في المواقف، والسلوكيات، التي كان يتخذها النبي في سياق ترشيده للعملية التغييرية، وتعامله مع النفسيات، والعقليات، والثقافات، والمشكلات المطروحة عليه يوميا. لقد فهم عليه الصلاة والسلام مشكلة المجتمع المنهك عقيديًا، وثقافيًا، وأخلاقيًا، وأدبيًا، وسلوكيًا.. ففي أعماق الواقع الجاهلي الذي كان مخربًا من الوجهة العقائدية – مما سمح بانتشار عبادة الأوثان، والأصنام، والمعبودات الأرضية المتنوعة «إثنوية، ثالثية، تعددية» – ومنهارًا من الناحيةالاجتماعية، والثقافية، التي فتحت الطريق لظهور الزنى، واللهو، وشرب الخمر، وإيتاء المحرمات، ووأد البنات، والرق، والعبودية، كما أنه متحلل من الناحية السياسية التي جسدت «العقلية الفرعونية»، ومختل من الناحية الاقتصادية التي كرست «الثقافة القارونية». ففي ظل هذا الوضع المتأزم، كان الرسولﷺ يمارس عمليات الترشيد للعملية التغييرية، ويتحرك بوعي لترسيخ معالم النموذج التغييري الحضاري الإسلامي.

المنهج النبوي والنظرة الكلية للمشكلة

لقد قام النبي عليه الصلاة والسلام بمعاينة المريض الجاهلي، وتشخيص أسقامه على مستويات متعددة، نركز في هذه الدراسة على مستويين:

- المستوى الكوني، أي مستوى الرؤية الكونية؛
- والمستوى الاجتماعي، أي مستوى المشروع الاجتماعي.

أولاً: الرؤية الكونية

لقد حدد النبي عليه الصلاة والسلام، ازمة «إنسان ما قبل الإسلام» في مستواها الكوني عن طريق الوعي القرآني، وأرجعها إلى «مشكلة غياب الرؤية الكونية الصحيحة» لقضايا الإنسان، والكون، والحياة، وموضوع كل واحد منها وغاياته، ووظائفه.

فلم يكن عليه الصلاة والسلام، ليضع مكان المرض اعراضه، ولا مكان الأعراض أسبابها، ولا مكان الأسباب آثارها، ولم يكن ليغير الواقع الاجتماعي المخرب، قبل تغيير واقع أسبق منه منهجياً هو «الواقع النفسي».. ولم يكن ليغير الواقع النفسي، قبل امتلاك نموذج تربوي للتغيير، يستقيه من «مذهبية كونية».

فالنبي عليه الصلاة والسلام يتحرك في وسط بشري، ولكنه موجه بتعاليم الوحي الأعلى، الذي دوى صوته من لحظات «اقرأ» العالمية التي نشرت صوت الرسالة الخاتمة. فتلك هي اللحظات التي طبعت وعي النبي ﷺ للأشياء، وحددت له وجهة التغيير، ومنهجيته. كما صاغت فهمه للحوادث والأفكار، وشيدت إدراكه للسنن الإلهية، وفتحت له سبيل الرشاد، والهداية. ومن هنا كانت حركته الترشيدية، متصفة بالخصائص الثلاث، التي أشرنا إليها في مدخل

هذه الدراسة: الوعي المقاصدي، والوعي البلاغي، والوعي السنني. ففي سياق فهمه لطبيعة المرض على المستوى الكوني مثلاً، راى بأن المرض عقائدي متصل بازمة غياب الرؤية الكونية الصحيحة، التي تهدي نشاط الناس، وتريهم الحق حقًا، والباطل باطلاً، وتسلك بطاقاتهم على طريق مشروع حضاري، يخدم غاية تنفعهم في دنياهم وأخراهم.

فطبيعة الأزمة كونية، وتصورية، وهي نتاج لافتقاد النموذج الحياتي السليم، والصحيح، الذي يشكل للناس شرعة، ومنهاجًا، يحدد لهم معالم طريق الاستخلاف، ويرسم لهم أبعاد المذهبية التوحيدية، في مستوياتها الأربعة: الخالق سبحانه وتعالى، والإنسان، والكون، والحياة.

فهذا الغياب للرؤية الكونية، هو الذي انتج «إنسان الفراغ الكوني»، الذي لا يملك أجوبة مقنعة، وصحيحة، عن التساؤلات الكونية الكبرى، التي لا تستقيم الحياة البشرية بدونها.

المعالم الكبرى للمذهبية التوحيدية

فالمذهبية التوحيدية[1] التي غير بها رسول الإنسانيةﷺ وجه التاريخ الجاهلي، وبنى بها حضارة الإسلام السامقة، تتشكل من منطلقات أساسية سنحاول إثباتها في هذا العنصر دون شرحها- وذلك بسبب طبيعة البحث، ومنهجيته الحالية - وهي:

- التوحيد كأساس مفاهيمي، وتشريعي، ومعرفي.

- الإيمان والتصديق بوحدة بعث أنبياء ورسل لكل الأمم بدون استثناء، قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (فاطر: ٢٤).

(١) سأذكر الأبعاد العامة للمذهبية التوحيدية تاركًا التفاصيل والاستدلال والأحاديث والتحليل الاجتماعي لها لأناقشها في كتابي الإسلامية الحضارية الشاملة بحول الله.

- ضرورة الإيمان والتصديق بالملائكة.

- ضرورة الإيمان والتصديق بوحدة مضمون البلاغ الرباني للناس كافة « عبادة الله، وتعبيد الناس له ».

- ضرورة الإيمان والتصديق بالوحدة المصدرية للبلاغ والوحي « المولى تبارك وتعالى ».

- ضرورة الإيمان والتصديق بوحدة جهل الغيب الإلهي، من قبل البشر .

- ضرورة الإيمان والتصديق بوحدة القضاء والقدر، خيره وشره.

- ضرورة الإيمان والتصديق بوحدة نصرة الله للأنبياء والمرسلين، ولعباده الصالحين.

- ضرورة الإيمان والتصديق بأن الأرض يرثها الصالحون .

- ضرورة الإيمان والتصديق بالوحدة المصدرية للخلق والكون والحياة « الله سبحانه وتعالى ».

- ضرورة الإيمان والتصديق بالوحدة الابتدائية للخلق.

- ضرورة الإيمان والتصديق بالوحدة الهدفية للخلق « الاستخلاف ».

- ضرورة الإيمان والتصديق بالوحدة التشريعية للخلق « الله هو المشرع الحقيقي ».

- ضرورة الإيمان والتصديق بالوحدة التكريمية للإنسان « كل البشر بدون استثناء ».

- ضرورة الإيمان والتصديق بوحدة الفطرة، والإرادة البشرية « في اختيار الخير والشر ».

- ضرورة الإيمان والتصديق بوحدة المسؤولية الفردية للناس عن أعمالهم أمام الله سبحانه وتعالى.

- ضرورة الإيمان والتصديق بوحدة الرزق الإلهي للمخلوقات كافة.

- ضرورة الإيمان والتصديق بوحدة التسخير الكوني «الكون المادي» للناس كافة.
- ضرورة الإيمان والتصديق بوحدة التسخير السنني «الكون السنني» لكل البشر.
- ضرورة الإيمان والتصديق بالوحدة المصيرية للخلق، «الموت والرجوع إلى المولى تبارك وتعالى».
- ضرورة الإيمان والتصديق بوحدة بعث الخلق بعد الموت.
- ضرورة الإيمان والتصديق بوحدة الحساب الإلهي، للناس .
- ضرورة الإيمان والتصديق بوحدة الجزاء الإلهي «الجنة والنار».
- ضرورة الإيمان والتصديق بوحدة العدل الإلهي.

ثانيا : الرؤيـة الاجتماعيـة

عندما نتأمل المشكلة السابقة من منظور عالم اجتماعي، تبرز لنا أحد الجوانب الأخرى للأزمة الجاهلية. الجانب الذي يصلنا مباشرة بعالم الممارسة اليومية، والحركة الواقعية للإنسان الجاهلي في ظل الثقافة الجاهلية. الثقافة الأرضية العاجزة عن السمو إلى مستوى الوعي التوحيدي. فالظاهرة الجاهلية من هذه الزاوية ترسم لنا صورة أخرى، من صور المازق العقائدي، الذي كان وراء محنة الجاهلية. فالإنسان هناك كان سليبا لجملة من الأهداف كرس ذاته، وحياته، وطاقاته ليحققها. فكل قدراته الذهنية، والجسدية، والمادية موجهة لخدمة هذه الغاية، والدافع الأساس الذي كان وراء حركة الجاهلي ، والمبرر المعقول بالنسبة إليه ليتحرك بالشكل السلبي، الذي أشرنا إليه، هو تلك الأهداف التي سنتعرف عليها من خلال هذين المثالين:

المثـال الأول :

ففي مقالة جعفر بن طالب للنجاشي في أعقاب حوادث الهجرة الأولى إلى الحبشة قال : (ياأيها الملك كنا قومًا أهل جاهلية نعبد الأصنام، وناكل الميتة، وناتي الفـواحش، ونقطع الأرحـام، ونسـيئ الجـوار، ويأكل منا القـوى الضعيف)[1].

المثـال الثاني :

في مقالة مبعوث الكفار عتبة بن ربيعة لرسول الله ﷺ قال: (يا ابن أخي إذا كنت تريد بما جئت به من هذا مالاً، جمعنا لك من أموالنا، حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفًا سودناك علينا، حتى لا نقطع دونك، وإن كنت تريد به ملكًا سودناك علينا)[2].

يبدو أن هذا البيان المختصر عن حالة المنطق الجاهلي، يستطيع أن يقدم لنا على الأقل الصورة الأساسية لطبيعة الحياة الجاهلية، وملامح فلسفتها الاجتماعية. فالبشر هناك من الوجهة الاجتماعية، يعانون من خلل، جعلهم رهائن « دائمين » لجملة من الأهداف السلبية، التي لم تتح لهم فرصة تفتيق طاقاتهم، وتسخيرها في خدمة رسالة معينة، ترتفع قليلاً أو كثيرًا عن الفلسفة الأرضية المغرقة في المادية، والظلم الاجتماعي. لقد حصر الاجتماع الجاهلي نفسه في سجن « الاهتمامات البسيطة » المتوارثة، عن أجيال الفراغ العقائدي. ويبدو كأن خلاصة أمراض الجاهلية الإنسانية، وجدت لها مكانًا آمنا للتعشيش، والبيض، والتفريخ، والنمو في ذات الجاهلي. فالجاهلي يقدم لنا أزمة مثلثية الشكل، تشتمل على ثلاث زوايا:

- زاوية الهوى والاشتغال بالعرض الدنيوي الزائل.
- وزاوية عبادة الصنم، والإعراض عن الحق تبارك وتعالى.
- وزاوية الجمود العقلي « الآبائية » والركود الثقافي.

---

(١) السيرة النبوية ، ص : ٢٣٦ (٢) المرجع نفسه، ص : ٢٩٥

قال تعالى :

﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ (الفرقان : ٤٣)

﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ (الصافات : ٩٥).

ولو استعملنا اللغة الاجتماعية، للتعبير عن الأزمة الجاهلية، لوجدنا بأن هذه «الأهداف البسيطة» لا تقدم مشروعًا اجتماعيًا متكاملاً، لتوجيه الطاقة الحيوية للمجتمع، كيما تتحرك على خط التحضر، والتثقيف، تبعًا لإيديولوجية معينة. ولهذا فالمجتمع الجاهلي، انعدمت فيه الفعالية الحضارية؛ وبالتالي فَقَدَ القدرة على التأثير في حوادث العالم، التي كانت تمر بهدوء يخدر النائمين، بعيداً عن كونه الجغرافي والفكري، هناك في ديار الحضارة الفارسية، والرومانية، حيث كانت تصنع الظاهرة الحضارية، استجابة لعقيدة تلك المجتمعات. وسوف نرى بعد مدة غير طويلة، من تحرك النبيﷺ، كيف أصبحت المنطقة السابقة، محطة لبناء حضاري عظيم، استقطب أنظار الحضارات القائمة، وهَدَّ فيما بعد أركانها من الأساس.

إن الناس في المجمع الجاهلي، كانوا يستبسلون في دوامة أهداف بسيطة، دلّ «علم السَّيْر في الأرض» أنها هي التي أغرقت كل الحضارات القديمة؛ تلك الحضارات التي كانت تقدس أشباه الأرباب الأرضيين، وخير مثال نسوقه هنا هو نموذج المجتمع الفرعوني القديم .. ونفس هذه النزعة سوف تهلك الفراعنة الجدد للعالم.. فراعنة «الاستعمار الديمقراطي»؛ والمجتمع السوفياتي القديم المعاصر، مثال آخر.. وتلك هي سُنَنُ الله في الاجتماع البشري.

إن الأهداف البسيطة لا تمتلك الروح الدافعة، التي تخلق للناس اهتمامات ترتفع بهم فوق وجودهم الأرضي الزائل، وتربطهم بالواقع الرباني المتسامي، الذي يستلهمون منه «النَّفَس الحضاري» المُمَكِن في الأرض.

هكذا إذن كانت وضعية المجتمع الجاهلي، التي امتدت في الحقيقة (أكثر من

ألفي عام، ابتداءاً من الجد الأكبر إسماعيل حتى محمدﷺ، ولقد أثمر هذا التاريخ الطويل فنًا غنيًا، وخلف تراثًا أدبيًا رفيعًا لا نظير له بين الأمم الأخرى، وتلك هي القائمة التاريخية للمجتمع، خلال هذه الحقبة من الزمان، ولو استخدمنا لغة الاجتماع لقلنا: إن هذا كل ما أثمره المجتمع الجاهلي، كثمرة لنشاط استقطب حول «الحاجة» و«المنفعة»، وبذلك نلاحظ أولاً أن هذا المجتمع لم ينتج كثيراً، مادام لم يخضع إلا لاتجاهات الحياة اليومية وقواعدها)[1].

من هنا تشكلت الأمة الحقيقية للمجتمع الجاهلي في شقيها: الكوني والاجتماعي. ولكي تحل هذه الفاجعة الحضارية الكبري، يتطلب الأمر إحداث تغييرات جذرية في المجتمع الجاهلي، ولن يتحقق هذا إلا بتغييرات جذرية في البناء الثقافي، ولا يمكن تحصيل ذلك إلا بتغييرات جذرية في الإنسان، ولا يمكن إجراء أي تعديل عقلي أو روحي أو سلوكي في حياة الإنسان، إلا بعقيدة كونية معينة. وهذا هو العمل التاريخي الأساس، الذي قام به رسول الإسلامﷺ.

المنهج النبوي في بناء الحضارة العالمية

النبيﷺ واجه قضية تركيب حضارة، وبناء مجتمع انطلاقًا من واقع معين، ولكي نفهمه بعمق، علينا أن نتعرف على العناصر الأساسية التي ساهمت في تشكيل الظاهرة التغييرية الإسلامية، وهي:

- عالم العقيدة الإسلامية، الذي أشرنا إلى جانب منه في التحليل السابق.
- المنهج النبوي في البناء الحضاري «مرتبط بالسنن، وبمنهج السير في الأرض».

---

(١) ميلاد مجتمع، ص: ٤٩.

- الإنسان القديم بمواريثه، وأمراضه الكونية، والاجتماعية.
- المجتمع الجاهلي، بثقافته، وتاريخه، ومؤسساته.
- الجماعة المؤسسة للعمل التغييري الإسلامي «الصحابة».
- القراءة «باسم ربك» كمعجزة حضارية، وكمنهج تغييري.

فالقدرة على فهم هذه العناصر في سياقها الاجتماعي، والعضوي، هو الذي سيكشف لنا عن معالم المنهج النبوي، في بناء الحضارة العالمية، من خلال تقديمه لنموذج من نماذجها، وهو المثل الكامل، والقدوة الحضارية، التي تمثل معيار البناء الحضاري الإسلامي.

فالمنهج النبوي في بناء النموذج الأول للحضارة العالمية، ووضع برنامجها، وتاسيس قواعدها، وترسيم حدودها، وصياغة منهجيتها، وتحديد وجهتها، وتعليم مقاصدها، كان منبنيًا على أصول الوحي الأعلى، الذي أدار العملية التغييرية، حول محور الإنسان كفرد، وكمجتمع، وكأمة، وكإنسانية، وعلى هذا فدراسة الظاهرة التغييرية النبوية، هي دراسة في منهج بناء الإنسان، بما في ذلك فلسفة هذا المنهج، ومشروعه، وغاياته، ومقاصده، وأدواته، وشروطه، وأساليبه، ومنهجيته..

ومن هنا فسنحاول الآن إثبات بعض الملاحظات عن المعالم الكبرى للمنهج النبوي في بناء الإنسان.

المحاور الثلاثة للمنهج النبوي

إن المتتبع لحركة التغيير النبوي، يجدها قد سارت بتوافق تام، مع سنن البناء الاجتماعي، التي ترافق دومًا ميلاد المجتمعات الحضارية في التاريخ، أعني أن

جهد النبي ﷺ مر بمراحل «الإنشاء الحضاري» الثلاث، والتي سبق وأن أشرنا إليها في فصل سابق وهي:

- مفصل الربط الحضاري للإنسان بالرؤية الكونية الإسلامية.
- مفصل التثقيف الحضاري للمجتمع على المشروع الاجتماعي.
- مفصل البناء الحضاري للرؤية والمشروع في شكل واقع ثقافي وعمراني..

إن التحليل الاجتماعي، والاستقراء التاريخي، لحركة التغيير الاجتماعي، التي ترافق نماذج التغيير الخاضعة لتوجيه نموذج فكري، قد دلا على أن العملية التغييرية تمر بهذه المفاصل، مع اختلاف منهجي في طبيعة الواقع المستهدف بالتغيير، من حيث الوسائل، والأدوات، والكيفيات، والتوجيهات الاجتماعية، تبعاً للرؤية الكونية، والإمكان البشري، والفكري، والمادي. فالتغيير الذي أجرته الحركة المسيحية على المجتمع الأوربي، وأدخلته بذلك إلى العصر العالمي الراهن يشبه التغيير الحضاري الإسلامي، الذي أدخل المجتمع الجاهلي إلى عالم الحضارات في مفاصل التغيير، أي في أنهما معاً قد مرا بمفاصل الربط، والتثقيف، والبناء، ولكنهما اختلفا في الأسلوب، والفلسفة، والمفهومية، والوسائل، المنهجية. فالتغيير الحضاري المعاصر، الذي تسعى الحركة الإسلامية، والحركة المسيحية إلى تحقيقه، سيمر بنفس المفاصل التغييرية الثلاثة: الربط، والتثقيف، والبناء، ولكن مع اختلاف جوهري في الفلسفة، والمنهج؛ وكذلك في اختلاف الوسائل، والأدوات، والتقنيات، والكيفيات، إذا قرناها بما كان عليه الوضع في حركة التغيير الإسلامي، والمسيحي الأولى. فالعصر العالمي الراهن أحدث تغيراً مهولاً في وسائل، وتقنيات التغيير الاجتماعي، تجب مراعاتها في أي تغيير جديد.

فالوعي الذي يجب أن تتمتع به القيادة التغييرية في حقل التغيير، هو ضرورة علمها بأن عملية التغيير الحضاري في الطور الأول من أطوارها، تشتمل على

عوالم ثلاثة هي: عالم الربط الحضاري، وعالم التثقيف الحضاري، وعالم البناء الحضاري، ولكل عالم من هذه العوالم شروطه، ومتطلباته، ومراحله ومناهجه، ووسائله، وأساليبه.. وكل إخلال بحاجة أي واحد منها، سوف يؤدي إلى الفوضى، والتصادم داخل الحركة التغييريه، ناهيك عن مسارها الكلي، وخاصة في المجتمع العالمي الراهن.

أولاً : المنهج النبوي وعالم الربط الحضاري

عملية الربط الحضاري للإنسان برؤية كونية معينة، هي العمل التاريخي الأول في حركة التغيير الاجتماعي، الهادفة إلى بناء ثقافة.. وعملية الربط أول ما تتحرك، فإن وجهتها، تكون نحو الإنسان، إذ هو غايتها الأساسية، وساحتها الكبرى.

ولهذا السبب كان التوجيه القرآني حاسماً في التنبيه على الساحة المركزية للتغيير الاجتماعي الأصيل، وهي الساحة النفسية بمفهومها الشامل:

قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الرعد : ١١).

فهذه الآية تحدثت عن ضرورات خاصة بفهم الرؤية الكونية عموماً، وتحدثت عن ضرورات خاصة بالمجتمع، وسلوكه الاجتماعي «سلباً وإيجاباً».. كما تحدثت عن ضرورات خاصة بالمنهج التغييري .. والذي يهمنا منها في هذا التحليل هو الشق الذي أشار إلى تغيير ما بالنفس، والذي سنبحثه من وجهة نظر النموذج التغييري النبوي[1].

ففي مفصل الربط الحضاري، جاهد الرسول ﷺ من أجل «ربط» النفوس

---

(١) راجع كتاب : حتى يغيروا ما بأنفسهم ، للأستاذ جودت سعيد .

والعقول بالخطاب الإلهي، وأتاح لها فرصة الاستجابة لتوجيهات الوحي الأعلى.

مفهوم الربط الحضاري

إذا ما حاولنا البحث عن كلمة الربط، ومشتقاتها من خلال النصوص القرآنية نجدها وردت في عدة مواضع هي:

﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ (الأنفال: ١١).

﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (القصص: ١٠).

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾ (الكهف: ١٤)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران: ٢٠٠).

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ (الأنفال: ٦٠)

ففي الآيات الأربع الأولى، جاءت الكلمة معبرة عن وضع ديناميكي حركي، أي في صيغة الفعل الذي يؤدي إلى نتائج مثل: التثبيت على الحق، والإيمان، والإقرار بالربوبية، والدعوة إلى الله الواحد القهار، والحركة المستديمة في سبيل الحق تبارك وتعالى؛ حيث أشارت الآيات الثلاث الأولى من الأربع، إلى قضايا متعلقة بعالم القلوب، والنفوس «ظاهرة نفسية»، متعلقة بعلوم النفس، أما الآية الرابعة فقد أشارت إلى قضية متصلة بالظاهرة الاجتماعية، والتحرك في

الواقع ، ومسك الثغور، والساحات الجهادية المتنوعة « المرابطة ».. وبعبارة أخرى، الآية تشير إلى « عالم الحركة الاجتماعية » ، حيث علوم الاجتماع البشري.

اما الآية الخامسة، فقد أشارت إلى وسيلة من وسائل المرابطة، اي توجهت نحو « عالم الوسائل » (رباط) . ثم تحدثنا الآيات في مجموعها عن مقاصد، وغايات، ينشدها الإنسان، وعن كيفية الوصول إليها، وفي الإطار الكلي للآيات يقف المنهج التغييري، الذي ترجعه إلى عالم النفوس، وعالم المجتمع، فهو منهج الربط الحضاري الذي يحتاج إلى البنيان البشري المرصوص، الذي يرابط في سبيل إعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى .

إننا لا نقصد هنا، البحث عن المعنى اللغوي لكلمة ربط، وإنما عن المضمون المنهجي، والنفسي، والاجتماعي، والغائي لها. فلو أخذنا مثلاً وجهة نظر مفسر كابن كثير، فإننا نعثر لديه عن فكرة مهمة في هذا المجال، وهذه فقرة من تفسيره: (... ﴿ وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا: ربنا رب السموات والأرض ﴾ يقول تعالى : وثبتناهم على مخالفة قومهم، ومدنيتهم ، ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد والسعادة والنعمة)[1] .

فالربط الذي نعنيه هنا هو الذي يتعامل مع القناعات الخالصة للبشر، بدون ضغط ولا إكراه .. فهو الاقتناع الراسخ ، والارتباط الوثيق بفكرة معينة، وهو كذلك دافع ذاتي في أعماق النفس الإنسانية، بحيث يعطيها طاقة الالتزام الكامل بضرورات العيش، تحت توجيه فكرة معينة .

فالارتباط بالشيء هو السلوك الناتج عن عمليات الربط للإنسان بعقيدة معينة، وفق منهجيات تتطابق مع سنن الله في الربط الحضاري ، فهو من الوجهة

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ، اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني ، ط : ٣ ، السنة : ١٤٠٢هـ - ١٩٨١م دار القرآن الكريم ، بيروت ، ص : ٤١٠ .

النفسية، حرارة ذاتية غلابة على طريق الفكرة ، وإيمان داخلي يخلق في الإنسان طاقة الإخلاص لها. . وهو من الوجهة الاجتماعية، الموقف التاريخي الذي تأخذه جماعة تغييرية ما، وبه تستجيب لمقتضيات الكفاح، من أجل رسالة معينة، وتنشط من أجل تحقيق مشروعها الاجتماعي . . وهو كذلك جو إنساني يتيح للجماعة بأن تتعلم قوانين العيش في جماعة حضارية .

الربط الحضاري في الجهد النبوي

والنموذج النبوي في التغيير، يعطينا صورة عميقة لظاهرة الربط الحضاري، وخير دليل على صحة هذا الاعتقاد، هو تتبع بعض العينات العملية من حياة الرسولﷺ وصحابته الكرام:

المثال الأول :

تأمل جيداً جواب النبي عليه الصلاة والسلام لكفار قريش، وهم يحاورونه في بعض قضايا الدين، وذلك باستعمال وسائلهم الخاصة التي تنتمي إلى الثقافة التقليدية:

(وما جئت بما جئت به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا أملك عليكم، ولكن بعثني الله إليكم، وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والأخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله، حتى يحكم بيني وبينكم)[١].

المثال الثاني :

تأمل كذلك مقالة جعفر بن أبي طالب للنجاشي، وهو يشرح مبادئ الإسلام حيث قال: (فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف

(١) السيرة النبوية ، ص : ٢٣٦ .

نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله، لنوحده ، ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه، من الحجارة، والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم، والدماء، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة. . .)[1].

إن اول ملاحظة يمكن تسجيلها على المثالين، هي بداية ظهور منظومة جديدة من الاهداف، وبوادر ثقافة، مازالت في حيز القوة، ومعالم مشروع اجتماعي وليد، بدأ يسجل حضوره التاريخي، في عالم الآخرين، عن طريق نموذجه الكوني، الذي انطلق في تلك اللحظات في صراع واسع النطاق مع الجاهلية القائمة بكل ألويتها القديمة .

فكلام النبي عليه الصلاة والسلام من جهة، يبرز لنا معالم النموذج التوحيدي، ويحدد مضامينه العامة، على الأقل في المرحلة الدعوية الأولى؛ ومن جهة أخرى يوضح لنا مهمته ﷺ في هذه المرحلة التاريخية، ثم يوضح لنا نتائج الاحتمالين الواردين: احتمال الرفض، واحتمال القبول، وجزاء كل واحد منهما.

أما كلام واحد من أصحابه الأوائل (مرتبط بالفكرة) فقد بين لنا العلامات البارزة على طريق المشروع الإسلامي الجديد، وحدد بعض أبعاده الاجتماعية، والتربوية، والسلوكية. كما قدم لنا تقريراً موجزاً، ووافياً عن شخصية الرسول ﷺ فيها بعض جوانب اخلاقه، وتاريخه.

إن هذه العينة مأخوذة عمداً من الفترة المكية، لكي تبرز لنا بعض القضايا

(١) المرجع نفسه ، ص : ٢٣٦ ، مع ملاحظة أن هذا القول فيه ضعف من ناحية المتن ، لأن جعفر يتحدث هنا عن الزكاة ، وهي لم تكن قد شرعت بعد .

المتعلقة بالتغيير في مراحله الانطلاقية.

فالمرتبطون الجدد بالإسلام سيخضعون لعملية تربوية منهجية، من قبل النبي عليه الصلاة والسلام، وهذا هو في الحقيقة العمل التاريخي الأول، الذي أنجزه ﷺ؛ حيث عمل على ربط الناس بالرؤية التوحيدية، وبالتالي «بالأهداف الحضارية الكبرى» للإسلام كبديل عن الأهداف الصغرى والبسيطة للجاهلية القديمة، بكل ما يحتاجه هذا العمل الحضاري الضخم من وسائل، ومناهج، وأساليب، تتماشى وطبيعة الدين الجديد، حيث فكرة المشروع وغير المشروع من الأدوات ، والسلوكات، والمواقف، واجبة المراعاة. وحيث ضرورة الانتقال بالدعوة من مرحلة إلى التي تليها، ومن مستوى البيت، والأسرة، والعشيرة، والقوم، والمجتمع الجاهلي القديم، إلى مستوى العالم أجمع، حيث كانت المنهجية الأخيرة في دعوة النبي ﷺ للحضارات القديمة جميعاً، وإعلان عالمية الحضارة الإسلامية واقعياً.

لقد سعى ﷺ عن طريق عمليات «الربط الحضاري» الأولى إلى بناء جماعة إسلامية قاعدية – «الصحابة» – على أساس النموذج الحضاري التوحيدي، تلك الجماعة التي ستكون قائدة البناء الحضاري الإسلامي الأول، والذائدة عن حمى الإسلام، ورسالته، ومشروعه. لقد كان جهد الرسول ﷺ منظماً، ومخططاً بواقعية، وعلمية، وتوازن.. يعمل بلا كلل ولا ملل، يحذوه الأمل المشرق، ويرافقه العزم والتصميم، والإرادة، والرغبة المتنامية، وتوجهه الإرادة الإلهية عن طريق رسالة الوحي الأعلى، الذي كان يتابع عن كثب أحداث الدعوة، ومراحل نموها لحظة لحظة ، وموقفاً موقفاً ، يتابعها في تفاصيلها الظاهرة والباطنة..

عمليات الربط وشبكة العلاقات الاجتماعية

مرحلة الربط الأولى، كانت حاسمة في حياة الدعوة باكملها، لدقتها وخطورتها، لأنها كانت تواجه الجاهلية في أعز ما تملك.. تواجهها في أصنامها وفي دنياها المطلقة. وهذه المواجهة باللغة الاجتماعية، تعني استقطاب عالم الأشخاص الذي كان ينتمي إلى المجتمع الجاهلي، وربطه بالمجتمع الإسلامي الوليد، وهذا الذي ظهر من خلال حركة النبي عليه الصلاة والسلام، من أجل بناء قاعدة بشرية، ترتبط باهداف الإسلام الحضارية، وتقتنع برسالة ومشروع هذه العقيدة الجديدة. فهذا العمل هو مخاطبة للعقول، ومحاورة للأذهان، والثقافات، والتقاليد، والعادات، كيما تنتقل من طورها الجاهلي إلى طورها الإسلامي، وذلك عن طريق عمليات الربط الحضاري. وهذا فعلاً ما أنجز في فترة قصيرة حيث وجدنا جماعة، تشتمل ضمن صفوفها على مختلف شرائح المجتمع، وطبقاته، بما فيها: السيد والعبد، العالم والأمي، الغني والفقير، الصبي والشيخ، التاجر والفلاح، الراعي والصانع، الطبيب والعسكري.. فكل هؤلاء- «نساءاً ورجالاً» – اصبحوا موضوعات للدعوة، والربط الحضاري، فهم الذين كانوا بمثابة الزاد الذي غذى جنين الحضارة الإسلامية، وصنع تاريخها.

من هنا نسنطيع أن نؤكد بأن الغاية الأساسية لعمليات الربط الحضاري، هي: بناء شبكة علاقات رسالية، يتواجد فيها: العالم، والمعلِّم، والمتعلم.. والداعي، والمفكر، والمثقف.. والصناعي، والزراعي، والحرفي... والجمهور المسلم الواعي، ويتحرك هؤلاء في تناسق، وتناغم، وانسجام من أجل تحقيق رسالتهم الحضارية، ذلك لأن (أول عمل يؤديه مجتمع معين في طريق تغيير نفسه، مشروط باكتمال هذه الشبكة من العلاقات، وعلى هذا الأساس نستطيع

أن نقرر : أن شبكة العلاقات، هي العمل التاريخي الأول، الذي يقوم به المجتمع ساعة ميلاده)(١).

عمليات الربط وشبكة العلاقات النفسية

أما عندما ننظر إلى عمليات الربط من الوجهة النفسية، فإننا نجدها عبارة عن جهود من أجل تحقيق غايتين في ذات الإنسان، هما :

– عملية إفراغ للعقول من المواريث الجامدة، والمعطلة، وإخلاء للقلوب من مس الشياطين، وهوس الملاعين!!

– عملية بناء للعقول بالقيم الحية، والأفكار السليمة، وتعمير للقلوب بالمبررات الدافعة، والشحنات الإيمانية القوية ..

وبعبارة أخرى: إفراغ الإنسان من كل المعطلات، والمثبطات الفكرية، والنفسية، والسلوكية، التي تعيق حركته الفاعلة في التاريخ، وتكبل نظم الطاقة الحيوية لديه، وتبددها خارج دوائر البناء الحضاري المستقيم على الطريقة.. وتزويده بالقيم، والمبررات الفاعلة التي تسلك بطاقته على طريق الخير، والعمل الصالح. وبعبارة أخرى: عمليات الربط على الصعيد النفسي، هي التي تخلق في ذات الإنسان جواً: (يجد الفرد نفسه فيه متخلياً عن عدد من الانعكاسات المنافية للنزعة الاجتماعية، ليكسب مكانها أخرى أكثر توافقاً مع الحياة الاجتماعية، وذلك هو تكييف الفرد.. فهو عملية تنحية، تجعل الفرد لا يعبأ ببعض المثيرات ذات الطابع البدائي– كتلك الحمية التي كانت تعتري عرب الجاهلية، وتدفعهم إلى الأخذ بالثأر – وهو عملية انتقاء، وإحساس، تجعل الفرد قابلاً لمثيرات ذات طابع أكثر سمواً.. طابع أخلاقي، جمالي مثلاً)(٢).

---

(١) ميلاد مجتمع ، ص: ٢٥ .

(٢) المرجع السابق نفسه ، ص ٦٢ .

مثال من السيرة النبوية

لنتتبع هذا المثال التوضيحي .. فجعفر بن أبي طالب، لما أجاب النجاشي، قال له :

– (كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار . . .) فهذه هي مجموعة المواريث، المعطِّلة للطاقة البشرية .. ثم واصل كلمته قائلاً :

– (فدعانا إلى الله لنوحده، ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه . . .) وهذه هي مجموعة الأهداف، والمبررات الجديدة، التي تمثل مصدر الطاقة الحيوية الجديدة. ثم يضيف مؤكداً :

– (فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به، وحرمنا ما حرم الله علينا، وأحللنا ما أحل . .) .. فالدلالة واضحة هنا على تمام عمليات الربط الحضاري، بشكل مستوف للشروط، وذلك على صعيد العينات الفردية، التي ستتحول فيما بعد إلى مجتمع حضاري هو « مجتمع المدينة » .

قال تعالى :

﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال : ٦٣) .

إن التحول الذي أحدثه الرسول ﷺ في نفسية صحابته الكرام، هو الذي يفسر لنا فيما بعد، قدرة هذا المجتمع على « المرابطة الحضارية »، والعطاء الإنساني الكبير، في مختلف حقول المعرفة البشرية . .

لقد مارس الرسول ﷺ عمليات الربط الحضاري، على مستوييها : النفسي،

والاجتماعي، وحقق فيها أعلى مستويات الإتقان المنهجي والثقافي، وترك لنا نموذجًا لبناء حضاري عالمي شامخ، بمقدوره أن يقدم لنا «الهداية الحضارية» كلما استدعيناه بوعي، وفهمناه بعمق .

العصـر العالمي والربـط الحضاري

إننا نريد اليوم، ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين، أن ننجز عملية تغييرية حضارية في مستوى القرآن الكريم، والسنة النبوية. ففي ظل قرن الحضارة العالمية، يُطرح سؤال مهم هو:

كيف نربط الناس بالإسلام، وبمشروعه الحضاري من جديد؟

وأمام هذا التساؤل، فإننا مضطرين إلى تحديد صورة عامة، عن طبيعة عمليات الربط الحضاري، ومتطلباتها الأساسية، مرجئين منهجية الربط، وكيفياته، إلى حينه. فلكي تتم عمليات الربط الحضاري، بشكل مستوف للشروط، نحن بحاجة إلى:

- السعي إلى بناء شبكة علاقات اجتماعية في كل مجتمع من المجتمعات الإسلامية القائمة، كمرحلة ضرورية على طريق بناء شبكة العلاقات الحضارية للأمة من جديد، وذلك من خلال التحرك على مستوى : الإنسان، والمجتمع، والإنسانية.. والاستفادة من التعاطف العالمي مع الإسلام، من قبل من لم تمسخ الحضارة الغربية فطرتهم الخيرة..

- بناء وعي مستوعب على الواقع الاجتماعي الفردي، والجماعي المحلي، والعالمي، على اعتبار أن هذا الواقع سوف يخاطَب بالأهداف الحضارية الكبرى للإسلام..

- تشكيل وعي عميق على الرؤية التوحيدية، ومشروعها الحضاري البديل

وضوابطها الشرعية، ونواظمها الثقافية، والمعرفية، والأخلاقية، وضماناتها ووعودها.

- امتلاك منهج للعمل التغييري الذي سوف يجدد الوسائل، والأولويات، والمراحل، والأوقات التي ينفذ فيها الفعل التغييري، كما تعرف فيه أساليب التغيير في مرحلة الربط الحضاري، ومنهجياته النظرية والعملية، وإجراءاته التربوية، والاستثنائية. فبدون منهج واضح المعالم، والخطوات، والأهداف، والسياسات، قد لاتصمد الحركة التغييرية أمام ابتلاءات الواقع العالمي الداهمة!؟.

وفي نفس المفصل التغييري سوف تكون الحركة التغييرية مطالبة بوضع مخططات، وبرامج للربط الحضاري على المستوى الفردي، والجماعي، والإنساني، وعلى الصعيدين المحلي والعالمي، والانطلاق الفعلي في طرح الرؤية الإسلامية، وعرضها على المجتمعات، وهنا تنشأ ضرورة التخصص في الفعل التغييري من خلال إنشاء المؤسسات التغييرية لعالم الربط الحضاري والتي منها:

- مؤسسات إعداد، وإنتاج مناهج عرض الرؤية، والضمانات، بالأسلوب الأمثل، الذي أثر عن النبي عليه الصلاة والسلام والصحابة الكرام «الجدل الأحسن» و«التيسير المخفف».. وهنا تعد المشاريع التربوية بالمفهوم الشمولي حتى تصبح تربية اجتماعية، تطول كل شرائح المجتمع، وفي كل مؤسساته المتنوعة، مع مراعاة توزيع الخريطة الثقافية، والجغرافية للناس، وقدراتهم، واستعداداتهم، كما أشرنا في البداية، فالعامة موضوع، والجماهير موضوع، والمثقفون موضوع، والمفكرون موضوع، والمهنيون موضوع، والسياسيون موضوع، والتجار والأغنياء موضوع.. إلخ، وكل موضوع من هذه الموضوعات يحتاج إلى فهم معادلته، والأسلوب الأمثل في التعامل مع قضاياه، ومتطلباته.

- مؤسسات ممارسة الدعوة، وتخريج الدعاة الربانيين، وإنتاج منهجيات البلاغ المبين.

- مؤسسات توزيع، ونشر الأفكار، وتبادل الخبرات.

- مؤسسات المتابعة، والمراقبة، والتقويم المتنامي للأشخاص، والأشياء، والأفكار.

- مؤسسات تنمية الإمكان المادي، والوسائلي، والخبرات الاستخدامية للأدوات .

كما أن كل مؤسسة من هذه المؤسسات وغيرها، تقتضي تفريعات، وتخصصات، فمثلاً في مؤسسات إعداد، وإنتاج مناهج عرض الرؤية، والرسالة نحتاج إلى:

- قسم التوجيه وإنتاج المنهجيات الدعوية .

- قسم التوجيه المعرفي الفكري للعلوم الاجتماعية، والسلوكية ، والكونية عموماً .

- قسم تصنيف احتياجات الدعوة على صعيد الأفراد، والأسر، والجماعات، والدول، والمجتمعات، والأمم، والإنسانية..

- قسم هندسة عالم الأشخاص، وتسيير الجهاز البشري للحركة التغييرية، بعيداً عن منطق الإدارات، والبيروقراطيات المريضة، بل في إدارات أخرى هي إدارات الجرح والتعديل، وعلم الرجال .. إلخ .

- قسم توجيه طاقات الحركة التغييرية البشرية، ونشرها داخل البناء الاجتماعي .

- قسم متابعة الحركة التربوية، والتكوينية للمرتبطين بالرسالة، والإجابة عن تساؤلاتهم، وتنمية صلاتهم بالفكرة.

هكذا إذن تتعقد العملية التغييرية، وتتعقد العمليات في مفصل الربط الحضاري، كلما تطور العقل البشري، ونما نضجه الفكري، والنفسي؛ وكلما تحسن النمو العقلي والنفسي للناس، كلما حقق الإسلام مقاصده المنشودة، لأن

الإسلام يحب العمل تحت سيادة منطق الحوار، والإقناع، والجدل الحسن، ويمج منطق التزييف، والغموض، والقهر.

فالتغيير الحضاري لم يعد مجرد تكديس للأعمال والبشر، بل أصبح هندسة حضارية عالية للمجتمع، وطاقاته، تتطلب المزيد من الوعي والفهم والخبرة.

ثانياً : المنهج النبوي وعالم التثقيف الحضاري

إن الحركة التغييرية وهي تتفاعل مع مشكلات الواقع، وهمومه، سوف تضطر إلى استيعاب متطلبات المجتمع، والسماع لخطابه، وحاجاته التي يرفع صوتها الناس من كل توجه، وتيار، وحزب. فمن الناس، مَنْ مشكلاتهم عقلية، ومنهم من مشكلاتهم نفسية، او اخلاقية، أو تربوية، ومنهم من مشكلاتهم معاشية أو مادية، ومنهم من مشكلاتهم عصبية أو قبلية.. ومنهم من يطالب بسيادة منطق الفوضى، ومنهم الحاقدون، والمغرضون.. ومنهم من يجادل على صعيد الفكر والعلم، ومنهم المجادل على صعيد المنهج، والمشروع.. ومنهم من يطالب بالبدائل، ومنهم من يطالب بالمعجزات الخارقة، ومنهم من يريد الخير للإسلام، ولكن أسلوبه يسيء إلى الإسلام، ومنهم من يريد الشر للإسلام ولكن يخدمه من حيث لايعلم.. والخلاصة هي: أن في المجتمع حياة، وديناميكية، وخير، وشر. والحركة التغييرية الحية، هي التي تفهم حركية المجتمع، وتسعى إلى معرفة همومه، واحتياجاته في كل لحظة، وآن، كيما تتمكن من استيعابه، وتقديم الخير له بدون إكراه، ولا تكليف بما لايطاق.

كما أن الحركة التغييرية سوف تواجه من قبل عالم أشخاصها، وما يطرحه من تناقضات، وأمراض، وظروف متعلقة بثقافات الناس القديمة، تلك التي

ستدخل إلى الحركة التغييرية، عن طريق العمليات الجارية في مفصل الربط الحضاري. ولكي تستجيب الحركة التغييرية بوعي، لكل هذه المتطلبات وغيرها، مما يعرفه أصحاب القضية، فهي مضطرة منهجياً إلى فتح المفصل الثاني، من مفاصل التغيير، وهو مفصل «التثقيف الحضاري».

مفهـوم التثقيف الحضـاري

إنه بمثابة المرحلة الوسيطة التي تتخصب فيها المشاريع، وتنمو فيها الخبرة باستمرار، وتتوجه نحو الواقع رويداً رويداً، وذلك بعد أن تتم عملية بناء المشروع التغييري، على الصعيد النظري، أي مستوى النفوس، والعقول، التي سوف تمارس عليها عمليات التثقيف، التي ستؤهلها للعيش في ظل ظروف الواقع المعيش، وفيها كذلك تعد مناهج تطبيق مشروع الإصلاح الاجتماعي.

إنها مرحلة حاسمة حقاً، لأنها هي التي تصل الوعي النظري بالوعي الواقعي، وتربط بين المبادئ النظرية، والمؤسسات الميدانية، وتؤلف بين الرؤية الكونية ومشروعها العملي، وبين إنسان النظرية الذي يكون في مؤسسات الربط الحضاري، وبين إنسان التطبيق الميداني، الذي يباشر عمليات الإنجاز. فهي مرحلة لازمة لاكتمال نمو الأفكار، ونضج الطروحات، وترسيخ القيم والمبادئ، وتجذر الاقتناع بالرسالة وبمشروعها.

فهي الجسر الذي يربط بين عالم ظهور الفكرة، وبداية ارتباط الناس بها، وعالم تجسيدها، وبنائها الموضوعي، وبين أزمة ما قبل الربط الحضاري، التي يعيشها الإنسان والمجتمع، وعالم ما بعد التثقيف الحضاري، الذي يصير فيه الإنسان والمجتمع على استعداد تام، ليعيشا في ظل الواقع الذي قاما لإنجازه.

وبعبارة أخرى: إنها مرحلة تعمير العقول، وتنوير القلوب، وتزكية النفوس،

واكتساب القدرة على البناء، والعلاج لمشكلات المجتمع، وصياغة المناهج الكفيلة بتقديم البدائل العملية للواقع المتأزم . والتثقيف الحضاري للإنسان، وعملية تكوين الخبرات، تحتاج إلى شروط، وموجبات، ومنهجيات، ومؤسسات، تماماً كما كان الحال في مفصل الربط الحضاري.

المنهج النبوي والتثقيف الحضاري

النموذج النبوي يعطينا صورة حية عن هذا المفصل، من مفاصل التغيير، وهذا ما تدل عليه توجيهات النبي عليه الصلاة والسلام، المتعلقة بحثه على العلم، والتجربة الواقعية، والتفقه في دين الله، وكذلك في عملياته التربوية التي ثقف بها المجتمع الإسلامي الأول، وساعد الإنسان ليفهم بعمق رسالته، ومشروعه، والبدائل التي يجب تقديمها، لحل أزمات مجتمعه. ومن الأهمية بمكان أن نثبت هنا بعض النماذج من حياته ﷺ وحياة صحابته الكرام، كمنتوج لعمليات التثقيف التي مارسها في مراحل الدعوة الأولى.

النمـوذج الأول :

تأمل جيداً جواب النبي عليه الصلاة والسلام لعمه أبي طالب، عندما قدم له مقترحات قريش لإغرائه ، وصرفه عن دعوته حيث قـال : **(يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر، حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ، ما تركته)**[1].

في هذا النموذج الرائع، لم يترك النبي عليه الصلاة والسلام، أي مجال للشك في ارتباطه الوثيق، وإيمانه الجازم، بالأهداف الحضارية الكبرى للإسلام.

---

(١) السيرة النبوية ، ص : ٢٢٦ ، وهو ضعيف (الضعيفة ، ٩٠٩) ، وقد ثبت بسند حسن بلفظ : « ما أنا بأقدر على أن تستشعلوا لي منها شعلة » - يعني الشمس - انظر الصحيحة (٩٢) .

فقد وضع عليه الصلاة والسلام وعيه، بين حدي العمل المنتج، وهما أن يظهر الله هذا الدين، أو يهلك دونه، وهذا فهم عميق لرسالة الإسلام، وقدرة كبيرة على توجيه المشكلات، وحل المعضلات، لصالح مسار الدعوة الأصيل، فهو هنا لم يقدم فقط موقفًا رافضًا لما هو مطروح عليه من استفسارات، بل وضح منهجًا في التعامل مع المشكلات، التي تتصل بقضية الاعتقاد، والإيمان بالأفكار، والتعامل مع أعدائها المغرضين.

فالنبي عليه الصلاة والسلام، قد نفذ بوعيه، وإدراكه للفكرة التوحيدية، من مجال الوعي البشري العادي، إلى مجال الوعي المتسامي، والمتجه نحو المولى تبارك وتعالى، ليتحرك في الواقع بنور الله، وهدايته.

النمـوذج الثاني :

انظر إلى موقف أبي بكر رضي الله تعالى عنه، من أصحاب رسول الله ﷺ الذين لحقهم أذى المجتمع الجاهلي، عندما قال له والده أبو قحافة :

(يابني إني أراك؛ تعتق رقابًا ضعافًا، فلو أنك ما فعلت، أعتقت رجالاً جلداً يمنعونك، ويقومون دونك؟ فقال أبو بكر : يا أبت إني، إنما أريد ما أريد لله عز وجل)[1].

إن هذا الموقف من الخليفة الإسلامي الأول، فيما بعد، يعبر عن وعي بصير على الأهداف الحضارية الكبرى للأمة، ولنموذجها التوحيدي، رغم أن هذا الموقف كان في المرحلة الأولى للدعوة .. فعلى الرغم من معقولية كلام والده وخاصة في المنطق القديم لكن جوابه كان واضحاً وحاسمًا، لأنه يعرف بأن هؤلاء الضعفاء هم إسمنت البناء الحضاري.. وهذا الموقف هو الذي صدقه التاريخ الإسلامي فيما بعد .

---

(١) المرجع نفسه، ص: ٢٦٦ .

النمـوذج الثالث :

ويعبـر عن الوعي التـثـقـيـفي، والتـربوي العـمـيق لدى النبي عليـه الصـلاة والسلام، وتحكمه الجيد في حركة التوعية على منهجية العمل الإسلامي، وفهمه لمراحلهـا، ومتطلبـاتهـا. فـفي إطار التـدريب التـربوي لأصـحابه، رأى (رسـول الله ﷺ مايصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية، بمكانة من الله ثم من عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم : **لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملكًا لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم مخرجًا مما أنتم فيه**)[1] .

النمـوذج الرابع :

في هذا النمـوذج يرسم لنا النبي عليه الصـلاة والسـلام منهـجًـا أصيـلاً من مناهج الدعـوات، وذلك باستـخـدامـه منهج السـير في الأرض، والنظر في سنن الذين خلوا، من أجل تثقيف أصحابه على منهج البناء الحضاري. فعن خباب بن الأرت رضي الله تعالى عنه ، أنه قال :

(شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا : ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال ﷺ : **قد كان مَنْ قبلكم، يؤخذ الرجل، فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه ، فيجعل نصفين ، ويُمشَطُ بأمشاط الحديد ما دون لحمه، وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه.. والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون**)[2] .

إن هذا الوعي البصير، هو الذي حافظ على حركة التغيير الإسلامي ، ومكنها من المواجهة، والمراجعة الناجحة، والنمو الإيجابي، الخاضع لسنن الله في

---

(١) المرجع نفسه ، ص : ٢٢١ .

(٢) رواه البخاري .

الخلق.. ومن المهم هنا أن نعرف أمرين أساسيين :

الأول : (أن الرسول صلوات الله عليه لما أخذ المسلمون عنه دينهم، كان وازعهم فيه من أنفسهم، لما تلي عليهم من الترغيب والترهيب، ولم يكن بتعليم صناعي، ولا تأديب تعليمي؛ وإنما هي أحكام الدين، وآدابه المتلقاة نقلاً، يأخذون أنفسهم بها، بما رسخ فيهم من عقائد الإيمان والتصديق)[١].

ثانياً : ومن هنا، فإن عمليات الربط الحضاري، والتثقيف الحضاري، كانتا متلازمتين في النموذج التغييري النبوي؛ وهذا ما انتبه إليه مالك بن نبي رحمه الله بذكاء حيث قال :

(إلا أن الحضارة الإسلامية قد جاءت بالتحديدين مرة واحدة، وصدرت فيهما عن القرآن الكريم الذي نفى الأفكار الجاهلية البالية، ثم رسم طريق الفكرة الإسلامية الصافية التي تخطط للمستقبل بطريقة إيجابية)[٢].

التثقيف الحضاري والعصر العالمي

فكما أشرنا في موضوع الربط الحضاري، أنه يقتضي وعياً على التطورات الراهنة للبشرية، فإن نفس الشيء يستدعيه فهم مفصل التثقيف الحضاري.. ولكي نفهم النموذج التغييري الإسلامي، في :

- رؤيته، ورسالته، ومشروعه ،
- ومنهج تطبيقه ،
- ومنهج المحافظة عليه ،

---

(١) المقدمة ، ص : ٤٨١ .

(٢) شروط النهضة ، ص : ٨١ .

- ومنهج توريثه للأجيال ،

- وفي منهج استمراره وتواصله،

علينا أن نعي بأن هذا المفصل بحاجة إلى شروط، ومنهجيات، ووسائل، وأدوات، نذكر منها ضرورات قيام مؤسسات، من أجل :

- استقبال منتجات عالم الربط، من أفكار، وأشياء، وأشخاص، وتساؤلات، ومشكلات تحتاج إلى حلول.

- تأهيل الأفراد في مجال الوعي بالمشروع الاجتماعي، والبديل الإسلامي.

- تكوين الإنسان منهجيًا، ومعرفيًا، وروحيًا، وسلوكيًا، وتأهيله ليتطابق مع نموذجه.

- تشكيل القدرات الإنجازية لدى الأفراد ، والجماعات.

- الصياغة المشروعية، والتنفيذية لنظم النموذج الإسلامي، القانونية، والتشريعية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية.. إلخ .

ولكي تقوم مؤسسات التثقيف بهذه الوظائف وغيرها، فهي بحاجة إلى مايلي:

- إنشاء مؤسسات للفكر، والمعرفة، تقوم بإعداد مشاريع، ومنهجيات التثقيف.

- إنشاء مؤسسات للاتصال بين عالم الربط الحضاري، وعالم التثقيف الحضاري، بغرض مفصلة العمل التغييري، وربطه ببعضه بعضًا، في وحدة عضوية متكاملة.

- مؤسسات التوجيه، والتقويم؛

- مؤسسات توزيع ونشر المشاريع، والمخططات، وتطبيقها على الأفراد والجماعات.

- مؤسسات استثمار الأفكار، والأشخاص، وتوليد الطاقة الحيوية، والبدائل الضرورية.

من هنا تظهر لنا أهمية هذا المفصل التغييري، كمرحلة وسيطة لازمة، تعود إليها الكلمة في نجاح المشاريع أو فشلها، وفي تزويد حركة التغيير بالأفكار، والمناهج في كل أطوارها السابقة واللاحقة، كما سنلاحظ بعد قليل، إن شاء الله.

ثالثًا : المنهج النبوي وعالم البناء الحضاري

هل يمكننا القول: بأن العملية التغييرية قد اكتملت، إذا توفر الشرطان السابقان، وهما :

– طرح المذهبية التوحيدية على المجتمع، ومحاولة ربط الناس بها؛

– تثقيف الناس على مشروعها الاجتماعي؟

في الحقيقة، يعتبر الشرطان السابقان، من الركائز الأساسية في أي عملية تغييرية، مهما كانت طبيعتها «مادية أو أخلاقية»، ولكنهما غير كافيين مالم ينزلا إلى أرض الواقع، كتشريعات ، وسلوكيات، ومواقف يومية، تجسد المضمون الاجتماعي، للرسالة المتبناة. إذ يعتبر الواقع، في هذه الحالة بمثابة التحدي الحقيقي الذي يواجه عمليات الربط، والتثقيف. ففيه تتأكد المصداقية الاجتماعية للفكرة، ولمشروعها، وتتأكد فيه الاستقامة، والصواب، والعاقبة.

وعلى هذا الأساس، تضطر الحركة التغييرية، وقيادتها، إلى الانتقال إلى المفصل الثالث من مفاصل التغيير في إطار الاطراد العام للعملية التغييرية باكملها، وهو مفصل «البناء الحضاري». وفيه تنزع الحركة إلى الواقع، وساحاته المتنوعة، لتُطبق مضامينها، وتنظر لحركة المجتمع اليومية، وتقدم الأفكار العملية .. فهي مرحلة إرساء مؤسسات الميدان المتعلقة بـ :

– توفير شروط العبادة؛

- وشروط الإعمار، والانتشار في الأرض؛
- وشروط الإنقاذ للناس من الظلمات إلى النور؛
- والتعارف بين الثقافات والمجتمعات، على أساس نظرية «التقوى».

ففي هذه المرحلة، تبنىٰ قدرة الحركة الأدائية، والعملية . فبعد إن كانت في عالمي الربط، والتثقيف، قدرة نظرية، تصبح في هذا المفصل، قدرة عملية، فهي مرحلة «الوعي الواقعي البناء»، والتفاعل مع سنن الله في الذكر، والأنفس، والكون، واقعياً، استجابة للرؤية التوحيدية، بغرض تحقيق مقاصد الشارع في الخلق، وتثبيت، وحفظ حقوق الدين، والنفس، والعقل، والمال، والنسل، والكون.

فهو نقل للنظرية الحضارية ، ومشروعها، إلى أرض الواقع، وتحويل الوعي إلى قيم سلوكية، ومواقف ميدانية منظمة، تدخل في اطراد تسيير المجتمع.

جهد النبي والبناء الحضاري

ففي سياق تتبع النموذج التغييري النبوي، نجده قد مر بمفاصل التغيير الثلاثة:

- مفصل الربط الحضاري.
- مفصل التثقيف الحضاري.
- مفصل البناء الحضاري..

فمن الوجهة التاريخية، نجد أن مفصل الربط الحضاري، قد امتد خلال الفترة المكية، مع التنبيه إلى ذلك التلازم الرائع، بينه وبين مفصل التثقيف الحضاري، كما أشرنا سابقًا.. أما مفصل البناء الحضاري، فقد أعقب هاتين المرحلتين مباشرة، حيث انطلق واقعيًا من هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة، مهد الحضارة الإسلامية الأولى، وفيها بدأ في الترتيبات العملية لبناء المجتمع

الإسلامي، وترسيم معالمه، وحدوده السياسية والجغرافية، وتشكيل مؤسساته الدينية والاقتصادية، والدعوية، والجهادية.

ثم تحرك النبي بعد عملية الترسيم الأولى، إلى إكمال عمليات الربط والتثقيف والبناء، في مستويات أخرى من العملية التغييرية، وفي ساحات جغرافية، وثقافية أخرى، حيث الدوائر المحلية، والدولية، والعالمية. وفي هذه المراحل بالذات انخرط الصحابة الكرام في عملية بناء واسعة النطاق، طالت كل العالم الإسلامي القديم، الذي وصله الدين الحق، عن طريق الدعاة الفاتحين.

البنـاء الحضـاري والعصر العـالمي

إن طبيعة البناء الحضاري أصبحت اليوم، ونحن على مشارف العصر العالمي، معقدة للغاية . ولذا فحاجتها ماسة جداً إلى الفعل المنهجي المنظم، وإلى الوسيلة الكفاة، والمناسبة، والمشروعة، وإلى الأسلوب الأمثل والفعال.

فلهذه المرحلة التغييرية موجباتها، وشروطها، ووسائلها، ومنهجياتها.. ومن بين وظائفها الأساسية:

- استقبال منتجات مفصلي الربط والتثقيف من أشخاص، وأشياء، وأفكار ثم تزويد هذه المفاصل بما تحتاجه من متطلبات، ولوازم؛
- بناء مؤسسات توجيه طاقات الأفراد، والجماعات، ومساعدتها على ممارسة أدوارها الاجتماعية.
- بناء مؤسسات لحماية المنجزات، والمحافظة على الحركة التغييرية، وخطها الفكري الأصيل.
- بناء مؤسسات الربط بين أجيال المجتمع، وتوريث الرسالة والمشروع، من خلال إرساء مناهج الاستمرار الحضاري.

المنهج النبوي وبناء إنسان الاستخلاف

إننا عندما نتأمل الجهد النبوي، نجده فعلاً انصب حول بناء هذا الإنسان النموذجي بمختلف صوره.. حيث وجدنا الرسول ﷺ وفر الجو الملائم لبناء الإنسان الخليفة، والداعية، والعالم، والمبلِّغ، والعسكري، والسياسي، والمجاهد، والقاضي، والتاجر، والفيلسوف، والمترجم، والطبيب، والمالي، والجمهور المسلم الواعي، الذي يدافع عن الإسلام، ويذود عنه في ساعات الخطر الداهم، كما كان الحال في حروب الردة، وفي الهجمة التتارية على العالم الإسلامي. وهذا الإنسان المنسجم مع الخطاب الإلهي، هو الذي بنى المجتمع الإسلامي العادل.. وشيد ثقافته الحضارية التوحيدية...

إن إنسان الاستخلاف هو الإنسان، الذي يتطابق مع الخطاب الإلهي، ويستجيب لنداء الإسلام، ويمارس وظائفه الأساسية في : العبادة، والإعمار، والإنقاذ، والتعارف، ويسعى دوماً إلى إيجاد الشروط التي تاهله لتقديم الإسلام للناس ، وتوفير الوسط الذي تعيش فيه تعاليمه، وتشريعاته، وتسمو فيه ذات الإنسان، وتتكرم، وتتصارع فيه الحسنة مع السيئة، فتغلبها الحسنة.

إن إنسان الاستخلاف الذي شاده النبي عليه الصلاة والسلام، هو من هذا الطراز الذي دفع بمشروع الإسلام إلى عالم الحضارة، حيث رابط هذا المجتمع في التاريخ أكثر من عشرة قرون كاملة.. ساهم خلالها في إثراء مسيرة الإنسانية بالعلم، والمنجزات الحضارية المتنوعة، التي ساعدت في وقت لاحق، الكثير من الأمم لتعيد بناء ذاتها الحضارية، مثل الأمة المسيحية.

فإنسان الاستخلاف هو الذي دفع بالمجتمع الإسلامي الوليد إلى عالم «الابتغاء الحضاري»، وعندما توقفت رسالة هذا الإنسان، ولم تستطع الأجيال

المتعاقبة تجديد العهد بهذه النوعية من البشرية الراقية، نزل المجتمع إلى مستوى دون المستوى الأول.. وتغير الإنسان غير الإنسان الأول، وجاء «إنسان التولي الحضاري»، الذي فتح عهد «التخلف الحضاري» في المجتمع الإسلامي.

إنسان المنهج النبوي

إن المنهج النبوي وهو يتحرك لبناء المشروع القرآني، انطلاقًا من بناء الإنسان، يضع في اعتباره نموذج هذا الإنسان، الذي يفترض فيه التأهل لحمل أعباء الاستخلاف في الأرض.

فإنسان السنة النبوية، مسؤول في كل ساحة يتواجد فيها **(كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته)**(١) ومجد في النهي عن المنكر، والأمر بالمعروف، طبقًا لسنن الدعوات، وقوانين البلاغ المبين: **(من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)**(٢) ومتق لله سبحانه وتعالى في كل موقع، ومخالق للناس بخلق حسن: **(اتق الله حيثما كنت، واتبع الحسنة السيئة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن)**(٣).

فهو الساعي في الأرض، والضارب في مناكبها باحثًا عن رزقه، وقوته. تجده هناك في ساحات الحضارة، يحتطب من قيمها، وأخلاقها، وعلومها ومدنيتها، ومعاشها: **(لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمة الحطب على ظهره فيبيعها، فيكف الله بها وجهه، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أم منعوه)**(٤) ... **(أطيب ما أكل الرجل، من كسبه)** (٥).

---

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن الأربعة.
(٣) رواه أحمد والحاكم والبيهقي والترمذي.
(٤) رواه البخاري.
(٥) رواه النسائي (صحيح النسائي).

وهو الكيس، الفطن، الذكي، والمتحرز الحذر، المنتبه: (**لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين**)[1] وليس بماكر، خداع، وغشاش، غير مؤتمن: (**من غشنا فليس منا**)[2].

نزاع إلى الأدب، والخلق الحسن، والجمال: (**إن الله جميل يحب الجمال**)[3].

والمسلم يمثل مع إخوانه وحدة عضوية متماسكة، وبناءاً منسجماً مرصوصاً: (**المؤمنون كرجل واحد، إن اشتكى رأسه اشتكى كله، وإن اشتكت عينه اشتكى كله**)[4] فهم كلهم متعاونون، ومتراحمون، لا يحبون الظلم، ويفرجون كرب بعضهم بعضاً: (**المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يسلمه.. من كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته، ومن فرج على مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً، ستره الله يوم القيامة**)[5] كما أنهم متحابون: (**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**)[6] وجارهم محفوظة حقوقه، ومحترمة محارمه: (**والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن.. قيل: ومن يارسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه**)[7] وجماعتهم لا تجتمع على الضلالة والظلم: (**ما كان الله ليجمع هذه الأمة على ضلالة أبداً**)[8] ولا يتخلفون عن المشورة إذا استدعتها الظروف.. ويجاهدون في سبيل الله: (**إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله**)[9].

---

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه مسلم.
(٤) رواه مسلم.
(٥) رواه البخاري ومسلم.
(٦) رواه البخاري.
(٧) رواه البخاري.
(٨) رواه الحاكم.
(٩) رواه أبو داوود (صحيح أبي داوود).

وإنسان الاستخلاف كذلك، متوازن في حياته، يربط بين الدنيا والآخرة، ويعرف وظيفة، وموقع كل واحدة في حياته ووجوده.

نموذج لإنسان الاستخلاف

لنأخذ نموذجًا من النماذج البشرية، التي أخرجتها مؤسسات البناء الحضاري التي كان يشرف عليها النبي عليه الصلاة والسلام.. ولغرض التحليل، سوف نختار نموذجًا يصور لنا العملية التغييرية النبوية في مفاصلها الثلاثة:

جاء في كتاب البداية والنهاية لابن كثير:

«أرسل سعد قبل القادسية، ربعي بن عامر رسولاً إلى رستم، قائد الجيوش الفارسية، وأميرهم، فدخل عليه، وقد زينوا مجلسه بالنمارق المذهبة، وزرابي الحرير، وأظهر اليواقيت، واللالئ الثمينة، والزينة العظيمة، وعليه تاجه، وغير ذلك من الأمتعة الثمينة، وقد جلس على سرير من ذهب.. ودخل ربعي بثياب صفيقة، وسيف، وترس، وفرس قصيرة، ولم يزل يركبها حتى داس بها على طرف البساط ثم نزل، وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحه، ودرعه، وبيضة على رأسه.. فقالوا له: ضع سلاحك؛ فقال: إني لم آتكم، وإنما جئتكم حين دعوتموني، فإن تركتموني هكذا، وإلا رجعت.. فقال رستم: إئذنوا له. فاقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق، فخرق عامتها، فقالوا له: ما جاء بكم؟ فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء، من عبادة العباد، إلى عبادة الله؛ ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.. فارسلنا بدينه إلى خلقه، لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه، ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبدًا، حتى نفضي إلى موعود الله. قالوا: وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات

على قتال من أبى، والظفر لمن يبقى.. فقال رستم: قد سمعت مقالتكم؛ فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟ قال: نعم كما أحب إليكم، يومًا أو يومين؟ قال: لا بل حتى نكاتب أهل رأينا، رؤساء قومنا. فقال: ما سن لنا رسول الله ﷺ أن نؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث بعد الأجل، فانظر في أمرك وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل.. فقال: أسيدهم أنت؟ قال: لا، ولكن المسلمون كالجسد الواحد، يجير أدناهم على أعلاهم. فاجتمع رستم برؤساء قومه، فقال: هل رأيتم قط أعز، وأرجح من كلام هذا الرجل؟ فقالوا: معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا، وتدع دينك إلى هذا الكلب؛ أما ترى إلى ثيابه؟ فقال: ويلكم لا تنظروا إلى الثياب، وانظروا إلى الرأي، والكلام، والسيرة، وإن العرب يستخفون بالثياب والمآكل، ويصونون الأحساب»[1].

لنتأمل بعمق هذا الكلام الرسالي، الذي لا يكف عن إعطاء السائرين في الكون بمعالم زاد المسير، لنحلل بعض جوانبه. إنّ هذا الإنسان الجديد، هو منتوج من منتجات المدرسة التغييرية النبوية، كما أنه يقدم لنا صورة لجندي بسيط في مؤسسات البناء الحضاري، وهو يؤدي واجبه اليومي في سياق تبليغ الإسلام للناس. إنّ هذا الإنسان يحمل في ذاته (المبررات الكونية للإسلام)، وهو يتحرك بقوة الروح، والعزيمة التي منحته أياها قيم هذا الدين وتعاليمه، وضماناته، ليحقق أهدافه في هذه الحياة والمتمثلة في: العبادة والإعمار، والإنقاذ، والتعارف - كما رأينا سابقًا.

عندما نتأمل موقع هذا الإنسان، وهو يمارس مهامه، وفي تلك اللحظة التي يقف فيها أمام رستم، ماذا نستنتج؟

الأمر الأول الذي نلاحظه، هو أنّ هذا الإنسان، قد أنهى تكوينه الحضاري

(١) البداية والنهاية، الحافظ ابن كثير، منشورات مكتبة المعارف، بيروت، السنة: ١٤٩٤هـ - ١٩٨٣م، ج٧، ص: ٤٠.

القاعدي، بمعنى أنه قد تخرج من :

- مؤسسات الربط الحضاري، بالرؤية والرسالة الإسلامية، حيث وعى أهدافه، واقتنع بها.. فهو في حالة ارتباط قوي برسالته، التي تتمثل في مشروع الإسلام عموماً ؛

- ومؤسسات الوعي الحضاري للمشروع، فهو يتمتع بفقه محيط لأهداف الإسلام، وقيمه.

- ومؤسسات البناء الحضاري، والانخراط في الإنجاز للمشروع.

ونستدل على المفصل الأول من التكوين من خلال قوله :

«الله ابتعثنا لنخرج من شاء من العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام..» فهو مؤمن بهذه المنظومة الجديدة من الأهداف، ومجاهد من أجل تبليغها للناس، كما نلاحظ بأنه تجاوز مفصل الوعي، وبقوة عجيبة، فرغم أنه كان في موقف زُيِّنت له فيه الدنيا، وأعدت خصيصاً لإغرائه، وإذهاله، ولكن على العكس اذهلها، واذهل اصحابها. فقد استحقر كل ذلك العالم، من الأشياء الماثلة امام عينه، ففي هذه اللحظة الجمالية الحضارية، اعطى موقفه التاريخي الخالد، وبرهن على ارتباطه بأهدافه، ورسالته، ووعيه العميق لها، وأبان مدى مسؤولياته الكبيرة، التي تفرض عليه ان يؤدي واجبه، كممثل حضارة، لا كمجرد مبعوث من قبل قائد إسلامي، هو نفسه طراز آخر من النماذج الاستخلافية. فهو يعيش في موقف فرض عليه أن يلخص فيه رسالة الإسلام في كلمات واضحة، ومفهومة، بعيدة عن التكهن، والتفلسف، والخلط. كما فعل جعفر من قبله بسنوات في أعقاب الهجرة الأولى إلى الحبشة وهو يخاطب النجاشي، ولنا أن نقارن المواقف لنتعرف على مدى التطابق الذي يعبر على نفس النموذج، الذي اخرجته المدرسة التغييرية النبوية، مع مراعاة الفارق الزمني.. فجعفر كان في العهد المكي، وربعي

كان في العهد المدني. لقد عبر ربعي– رحمه الله – عن تطليق عالم مادي، لم تعد تسري فيه روح الحياة، ولم يعد له مفعوله القديم على النفوس الجديدة، وارتبط بعالم غيبي، يمده بمبررات أكثر إنسانية، وفعالية، وفطرية. كما وضعه أمام ضمانات عظيمة، لا يمكن تقديرها وفق المقاييس المتعارف عليها في عالم الناس، حيث أصبح لعالم الأشياء مفهوم آخر، ادمجه في منظومة تحقيق أهداف إنسانية، تخدم مصالح الإنسان في عالمه الحاضر، وعالمه الآخر.

وربعي في الحقيقة، وفي ذلك الظرف، كان في المراحل المتقدمة للبناء الحضاري، للنموذج الإسلامي الاجتماعي، وبالضبط كان يمارس عملية (الإنقاذ) التي هي الهدف الثالث في منظومة الأهداف الحضارية الكبرى للإسلام. وهذا واضح في قوله « ... ابتعثنا الله لنخرج... ».. وكان كل كلامه نابع عن قناعة تامة بما يقول، ويفعل، وكانت الضمانات التي تبرر له سلوكه، وتملأ عقله، ونفسه، وباطنه، حتى أصبحت تشع بالخير في الخارج، ويتضح ذلك من قوله « ..الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن يبقى.. » وهذا الاستحضار، ليس من باب (المنتاج السياسي)، الذي الفته المجتمعات القديمة، ولكن من باب التوافق مع سنن الله في الذكر، والأنفس، والكون.. السنن التي دفعته ليقول، وهو يجيب عن طلب رستم: « .. ما سن لنا رسول الله ﷺ ان نؤخر عند اللقاء أكثر من ثلاث، فانظر في أمرك وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل.. ».. لقد حدد المصير بدقة، وعن علم، ودراية..

فموقفه سنني، لأنه قد وفر في تلك اللحظات شروط (سنة الإعداد) سواء الروحي، أو المعنوي، أو العملي، أو المادي، فهو قادر على أن يحقق عملية الإنقاذ، بتوفيق من الله، وتثبيته، ونصرته..

ثم قدم لنا فصلاً كاملاً من فصول التغيير الحضاري، في معرض إجابته عن تساؤل رستم: «أسيدهم انت؟ فقال: لا ولكن المسلمون كالجسد الواحد، يجير أدناهم على أعلاهم..» إنه يتحدث عن شبكة العلاقات الاجتماعية، في أحسن ظروفها وانسجامها.. وفي خلاصة الكلام، ياتي رستم ليحكم على هذه النوعية البشرية الراقية، التي تغيرت معالم نفسيتها، وعقليتها، فتغيرت معها الكلمة، والسيرة، واللهجة، والهدف، والضمانة.. فقال: «..ويلكم لاتنظروا إلى الثياب، وانظروا إلى الراي، والكلام، والسيرة..» وكان رستم في تلك اللحظة أدرك جوهر التحول، واصل التغير، واحس بأنه يتحدث مع نموذج بشري آخر، لم يعهده من قبل، في حياة الأمم السابقة. هذا النموذج الذي قال عنه خالد بن الوليد الصحابي الجليل المؤمن، والعسكري المحنك المظفر، والجندي الطائع عندما بعث لولاة كسرى على الوية العراق:

«وإلا فوالذي لا إله غيره لابعثن إليكم قوماً، يحبون الموت، كما تحبون الحياة..».. إن التغيير لما في النفس، هو الذي أنتج هذه النماذج الاستخلافية العالية، وإنه لتحول يعبر عن عظمة الإسلام، ورسالته، وأهدافه، وضماناته ووعوده، وعن التربية النبوية المستقيمة على الطريقة، والمتطابقة مع سنن الله المنتشرة في الذكر، والأنفس، والكون. وعلى هذا الأساس، نستطيع أن نؤكد على أن التغيير الأصيل، هو الذي يكون موجهاً إلى تغيير النفس الإنسانية، أي رفع قدراتها الفهمية، والروحية، والعملية، التي تؤهلها لفهم عقيدتها وأهدافها، ورسالتها، واستيعابها لسنن الله العاملة في الذكر، والأنفس، والكون، لأن هذا التغيير يتبعه آليًّا التغيير في الكلام، والعمل، والموقف. وعليه فالحركة التغييرية مالم تستهدف بالتغيير الإنسان في ذهنه، وقلبه، وجوارحه، فإنها ليست أصيلة.. والحركة الأصيلة كالتي غيرت ربعي، هي التي تستطيع النفاذ إلى أقطار

النفس، وتستهدفها بالإفراغ من الأسقام، والملء بالخير، تبعًا لسنن الربط الحضاري..

لقد تخرجت أمثال هذه النماذج تحت الرعاية الخاصة للرسول ﷺ وفي الورشات الإسلامية للبناء الحضاري، المختصة في بناء القدرات الفهمية، والقدرات الروحية، والقدرات العملية، والقدرات الجهادية، والإعمارية، والإنقاذية.

ومن الوجهة التاريخية العامة، نلاحظ بأن العمليات الأولى لبناء (إنسان الاستخلاف)، هي المقدمة الأساسية لبناء (مجتمع الاستخلاف)، و(ثقافة الاستخلاف)، كقوى حضارية كبرى، بإمكانها تغيير مسيرة الإنسانية نحو الأفضل، بتوفيق من الله عز وجل.. وعندما يبنى الإنسان، ويرتفع إلى مستوى الاستخلاف، فذلك دليل على اجتيازه المرحلة التي يكون فيها في «مؤسسات بناء المبررات الحضارية» وبالتحديد قد اجتاز العوالم الثلاثة للتغيير الحضاري، أي:

– الربط الحضاري، وتكون المبررات في مرحلة التشكل وفي تنامٍ مستمر.

– والتفقيه الحضاري، وتكون المبررات في أعلى مستوياتها ودافعة للنشاط داخل النفس.

– وعالم البناء الحضاري، وتكون المبررات دافعة للنشاط داخل الواقع الاجتماعي، المعضل بكل تحدياته، وصعوباته، ويكون الإنسان، والمجتمع، والثقافة في حالة حركة مستمرة..

خـــاتمـــة

الحمد لله الذي وفقني لهذا، وأمدني من العون ما مكنني من إنجاز هذا العمل المتواضع، الذي اضعه بين يدي القارئ الكريم، راجيًا من المولى تبارك وتعالى أن يعيننا جميعًا على الاستفادة منه، وذلك بتقبل النصائح والتوجيهات، واستقبال الانتقادات، والتصويبات، بقلوب شجاعة، وعقول نيرة، ونفوس على الحق صابرة، وفي سبيله ماضية، ومن أجله مضحية. فما أرجوه من قارئ هذا الكتاب هو أن يدلني على الخطأ إن اكتشفه، ويبصرني على العيب إذا لمحه، ويوجهني إلى الصواب ،كلما رآني ملت عنه، واخذت مسلكًا غيره، وحدت عن طريق الحق، وتنكبت عن العلم الذي ينفع الأمة، ويسدد خطاها، ويعينها على استعادة عافيتها، حتى تعود لأداء دورها في العبادة، والإعمار، والإنقاذ، والتعارف كما أمر المولى تبارك وتعالى.

إن القارئ الكريم سيلاحظ افكار هذا الكتاب المتنوعة، وسيكتشف أن بعضها لم ينضج بالشكل المستوفي للشروط، وأن بعضها ينقصه العمق، كما أن بعضها الآخر يفتقر إلى التحليل، والتمثيل، والتاصيل.. وهكذا سيسجل ملاحظاته المختلفة، واشد الناس حاجة إلى هذه الأمور، هو المؤلف. ومؤلف هذا الكتاب من أحوج الناس إلى التعلم، وطلب المعرفة، وتلقي النصح، والترشيد من الأساتذة، والعلماء، والمفكرين المتخصصين في هذه الحقول العلمية.

وفي ختام هذه الدراسة أريد أن أنبه إلى أن هذا الكتاب هو القسم الأول في هذه السلسلة، التي خصصتها لدراسة قضايا التغيير الحضاري، في ضوء السنة النبوية. وهي محاولة إنسان مسلم، مقصده الأساس، هو المساهمة في تحريك طاقات الأمة الحيوية من الأفكار، والأشخاص والأشياء، لتسير على خط «الاستخلاف». وكما يعلم القارئ الكريم أن الذي يريد أن يخوض معركة الاستخلاف في الأرض، بحاجة إلى منهج تغييري، وكما رأى القارئ في الكتاب، أهمية المنهج النبوي في التغيير الحضاري الجديد.. وعليه فالحركة الإسلامية المعاصرة، بحاجة إلى فتح فصل كامل من فصول التغيير، يتعلق بدراسة هذا المنهج الفطري المنسجم مع قانون الحياة السليم.

والله من وراء القصد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .
- إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول ، محمد بن علي الشوكاني ، تحقيق الدكتور : شعبان محمد إسماعيل .
- ازمة العقل المسلم ، أبو سليمان عبد الحميد أحمد ، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، السنة : ١٩٩١م . ط : ١ .
- افكار ورجال ـ قصة الفكر الغربي ـ كرين برنتن ، ترجمة : محمود محمود .
- إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات ، الدكتور : طه جابر فياض العلواني ، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، السنة: ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م ، ط : ١ .
- إقرأ وربك الأكرم ، جودت سعيد ، دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الأولى ، السنة : ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م .
- البداية والنهاية ، الحافظ ابن كثير ، منشورات مكتبة المعارف ، بيروت ، السنة : ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٣م .
- البرهان ، إمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك الجويني ، تحقيق وتقديم، د. عبد العظيم الديب .
- تجديد التفكير الديني في الإسلام ، محمد إقبال ، ترجمة : محمود عباس ، الطبعة الثانية ، السنة : ١٩٦٨م .

- حتى يغيروا ما بأنفسهم ، جودت سعيد ، دار الفكر ، دمشق ، ط:٦، السنة : ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.
- السنة النبوية ومنهجها في بناء الحضارة والمعرفة، ندوة عقدت في عمان ما بين ١٥ ـ ١٩ ذي القعدة ١٤٠٩هـ .
- السيرة النبوية ، ابن هشام ، الطبعة الثانية ، السنة : ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م .
- شروط النهضة ، مالك بن نبي ، ترجمة : عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دار الفكر دمشق ، السنة: ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.
- ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية ، محمد سعيد رمضان البوطي ، الطبعة الرابعة ، السنة : ١٩٨٢م.
- كيف نتعامل مع السنة النبوية ـ معالم وضوابط ـ الدكتور يوسف القرضاوي ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ، السنة : ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.
- العلم في منظوره الجديد ، روبرت أغروس و جورج . ستانسيو ، كتاب عالم المعرفة رقم : ١٣٧ ، السنة ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.
- مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد ، السنة : ١٣٤٨هـ.
- مختصر تفسير ابن كثير ، الحافظ ابن كثير ، اختصار وتحقيق : محمد على الصابوني ، دار القرآن الكريم بيروت ، الطبعة الثالثة ، السنة : ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٣م.

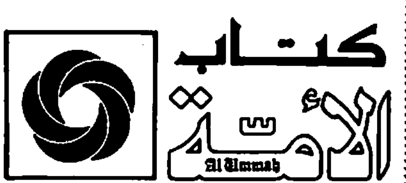
- المستصفى من علم الأصول ، أبي حامد محمد بن محد الغزالي ، منشورات الشريف الرضي ، قم ، الطبعة الثانية ، ١٣٤٢هـ.
- معيار الوحي في الفكر الإسلامي ، البروفيسور عبد المجيد مكين ، ندوة عقدت باليابان عن قضايا الحضارة الإسلامية واليابان ، طوكيو ، ٢٠ ـ ٣٠ مارس ١٩٨٠م (باللغة الإنجليزية).
- مقدمة ابن خلدون ، عبد الرحمن بن خلدون ، تحقيق : الدكتور عبد الواحد وافي ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، الطبعة الثالثة.
- الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق الشاطبي، دار الفكر العربي.
- ميلاد مجتمع ـ شبكة العلاقات الاجتماعية ـ مالك بن نبي ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، دمشق . السنة : ١٩٨١م.
- دراسة في البناء الحضاري ـ محنة المسلم مع حضارة عصره ـ الدكتور : محمود محمد سفر ، كتاب الأمة ، رقم ٢١ ، الطبعة الأولى ، السنة: ١٤٠٩هـ .
- الدعوة الإسلامية والمعادلة الاجتماعية ، الشيخ الطيب برغوث ، دار البعث للطباعة والنشر ـ قسنطينة ، الجزائر ـ ، الطبعة الأولى .
- فكرة الإفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ ، مالك بن نبي ، ترجمة : عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، دمشق ، السنة : ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨١م .
- هذا الدين ، الشهيد سيد قطب ، الاتحاد الإسلامي للمنظمات الطلابية، الطبعة الرابعة، السنة : ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

وكــــلاء التــوزيــع

البلــد	إســم الوكيــل	رقم الهاتف	عنــوانــه
قطـــر	□ دار الثقــــــافــــــة	٤١٤١٨٢	ص.ب : ٨١٥٠ الدوحة
	□ دار الثقــافــة «قسم تــوزيع الكتــاب»	٤١٣٤٧١	فاكس : ٤٣٦٨٠٠ ـ بجوار سوق الجبر
الإمارات	□ مكتبـــــة دار الأمـــــان	٣٤٤٨٣٠	ص.ب : ٤٦٩٥ أبوظبي
الإمارات	□ المكتبـــــة الحديثـــــة	٦٥٥٦٢٢	ص.ب : ١٥٥٤٠ العين ـ فاكس ٦٦٩٥٤٠
الإمارات	□ جمعيـة الإصـلاح والتـوجيـه الاجتماعي	٦٦٥٦٥٤	ص.ب : ٤٦٦٣ دبي ـ فاكس ٦٦٢٠٧١
البحـرين	□ مكتبـــــــــة الآداب	٢٣١٠٦٢ ٢١٠٧٦٨ (المنامة) ٦٨١٢٤٣ (مدينة عيسى)	ص.ب : ٢٨٧ البحرين فاكس ٢١٠٧٦٦
السعودية	□ شركـــــة تهامـــــة للتـــــوزيع	٦٦٩٥٠٠٠	ص.ب : ٩٤٠٩ جدة ٢١٠٢١٤١٣ ـ شارع الملك فهد ـ خلف أسواق النويصر فاكس : ٦٦٠٧٦٠٠
عُمـــان	□ مكتبـــة الثقـــافـــة الإســـلاميـــة	٢٩٢٩٣٤ ٢٩٤٩٨٦١	ص.ب : ١٨٦٨٢ ظفار ـ صلالة
الكـويت	□ مكتبـــة دار المنـــار الإســـلاميـــة	٢٦١٥٠٤٥	ص.ب : ٤٣٠٩٩ ـ حولي ـ شارع المثنى ـ رمز بريدي : ٢٣٠٤٥ فاكس : ٢٦٣٦٨٥٤
الأردن	□ مـــؤســـة الفـــرقـــد للنشر والتـــوزيع	٦٠١٥٠١ ـ ٦٠١٥١١ ٦٠١٩١١	ص.ب : ٩٦٠٦٥٤ ـ عمّان فاكس : ٦٠١٩٩١
اليمـــن	□ مكتبـــــة الجيل الجديـــــد	٧٨٠٤٠ ـ ٧١٣٦٣ ٢٧٠٣٨ ـ ٧٥٨١١	ص.ب : ٥٤٤ ـ صنعاء
الســودان	□ دار التـــــــوزيـــــــع	٧٩٤٦٠ ـ ٧٥٥٨٥ ٨٠٥٨٨	ص.ب : ٣٥٨ ـ الخرطـــوم
مصـــر	□ مـــؤســـســـة تـــوزيع الأخبـــار	٧٤٨٨٤٤ ٧٤٨٨٨٨ ـ ٧٥٨٨٨٨	ص.ب : ٧ القاهرة ـ فاكس : ٥٧٤٨٧٠١
المغـــرب	□ الشركة العربية الأفريقية للتوزيع «سبريس»	٢٤٩٢٠٠	ص.ب : 13008 - 70 زنقة سجلماسة الدار البيضاء 5 ـــ فاكس ٢٤٩٢١٤
إنكلـــترا	□ دار الـــرعـــايـــة الإســـلاميـــة	(01) 272 - 5170/ 263 - 3071	**Muslim Welfare House** 233, Seven Sisters Road, London 2DA. Telex No: 8812176 MUSLIM G Registered Charity No: 271680



مركز البحوث والدراسات

هاتف : ٤٤٧٣٠٠

فاكس : ٤٤٧٠٢٢

برقياً : الأمة ـ الدوحة

ص . ب : ٨٩٣ الدوحة ـ قطر

ثمن النسخة

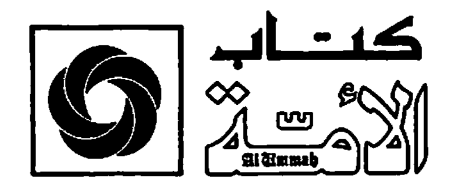
الأردن	٥٠٠ فلس
الإمارات	٥ دراهم
البحرين	٥٠٠ فلس
تونس	دينار واحد
السعودية	٥ ريالات
السودان	٢٥ جنيهاً
عُمان	٥٠٠ بيسة
قطر	٥ ريالات
الكويت	٥٠٠ فلس
مصر	٢ جنيه
المغرب	٨ دراهم
اليمن	١٢ ريالا

○ الأمريكتان وأوروبا وأستراليا وباقي دول آسيا وأفريقيا دولار أمريكي ونصف أو ما يعادله .

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية

٥ لسنة ١٩٩٥م

الترقيم الدولي : ٣ - ١٣ - ٢٣ - ٩٩٩٢١



صدر منه :

- مشكلات في طريق الحياة الإسلامية

« طبعة ثالثة » - الشيخ محمد الغزالي

- الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف

« طبعة ثالثة » - الدكتور يوسف القرضاوي

- العسكرية العربية الإسلامية

« طبعة ثالثة » - اللواء الركن محمود شيت خطاب

- حول إعادة تشكيل العقل المسلم

« طبعة ثالثة » - الدكتور عماد الدين خليل

- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري

« طبعة ثالثة » - الدكتور محمود حمدي زقزوق

- المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري

« طبعة ثالثة » - الدكتور محسن عبد الحميد

- الحرمان والتخلف في ديار المسلمين

« طبعة ثالثة+طبعة إنجليزية » - الدكتور نبيل صبحي الطويل

- نظرات في مسيرة العمل الإسلامي

« طبعة ثانية » - عمر عبيد حسنه

- أدب الاختلاف في الإسلام

« طبعة ثانية » - الدكتور طه جابر فياض العلواني

- التراث والمعاصرة

« طبعة ثانية » - الدكتور أكرم ضياء العمري

- مشكلات الشباب : الحلول المطروحة والحل الإسلامي

« طبعة ثانية » - الدكتور عباس محجوب

- المسلمون في السنغال ـ معالم الحاضر وآفاق المستقبل

« طبعة أولى » - عبد القادر محمد سيلا

- البنوك الإسلامية

« طبعة أولى » - الدكتور جمال الدين عطية

- مدخل إلى الأدب الإسلامي

« طبعة أولى » - الدكتور نجيب الكيلاني

- المخدرات من القلق إلى الاستعباد

« طبعة أولى » - الدكتور محمد محمود الهواري

- الفكر المنهجي عند المحدثين

« طبعة أولى » - الدكتور همام عبد الرحيم سعيد

- فقه الدعوة ملامح وآفاق في حوار

الجزء الأول والثاني «طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر ـ الأستاذ عمر عبيد حسنه

- قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر

« طبعة أولى » - الدكتور زغلول راغب النجار

- دراسة في البناء الحضاري

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور محمود محمد سفر

- في فقه التدين فهماً وتنزيلاً

الجزء الأول والثاني «الطبعة الأولى»+طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور عبدالمجيد النجار

- في الاقتصاد الإسلامي (المرتكزات ـ التوزيع ـ الاستثمار ـ النظام المالي)

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور رفعت السيد العوضي

- النظرية السياسية الإسلامية في حقوق الإنسان الشرعية ـ دراسة مقارنة

«طبعة أولى»+طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور محمد أحمد مفتي والدكتور سامي صالح الوكيل

- أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور أحمد محمد كنعان

- المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور عبد العظيم محمود الديب

- مقالات في الدعوة والإعلام الإسلامي

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ نخبة من المفكرين والكتاب

- مقومات الشخصية المسلمة أو الإنسان الصالح

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور ماجد عرسان الكيلاني

- إخراج الأمة المسلمة وعوامل صحتها ومرضها

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور ماجد عرسان الكيلاني

- الصحوة الإسلامية في الأندلس

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور علي المنتصر الكتاني

- اليهود والتحالف مع الأقوياء

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور نعمان عبد الرزاق السامرائي

- الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الأستاذ منصور زويد المطيري

- النظم التعليمية عند المحدثين

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الأستاذ المكي أقلاينة

- العقل العربي وإعادة التشكيل

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور عبد الرحمن الطريري

- إنفاق العفو في الإسلام بين النظرية والتطبيق

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور يوسف إبراهيم يوسف

- أسباب ورود الحديث

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور محمد رأفت سعيد

- في الغزو الفكري

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح

- قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي (الجزء الأول)+(الجزء الثاني)

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور أكرم ضياء العمري

- فقه تغيير المنكر

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور محمد توفيق محمد سعد

- في شرف العربية

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور إبراهيم السامرائي


مطابع الدوحة الحديثة
ص . ب . ١٤٥ الدوحة ـ قطر

■ لقد مارس الرسول ﷺ ، عمليات الربط الحضاري ، على المستوى : النفسي والاجتماعي ، وحقق فيها أعلى مستويات الإتقان المنهجي والثقافي ، وترك لنا نموذجًا لبناء حضاري عالمي شامخ ، بمقدوره أن يقدم لنا «الهداية الحضارية» ، كلما استدعيناه بوعي ، وفهمناه بعمق ..

■ الوعي المنهاجي ، هو الوعي الذي يعطي للحركة التغييرية ، القدرة اللازمة لفهم سنن الذكر ، وسنن الأنفس ، وسنن الكون ، ذلك أن فهم العلاقة بين هذه الأنواع من السنن ، هو الذي يجعل المشكلة الحقيقية للأمة بيّنة بدون غموض ، وممكنة الحل في حدود الطاقة البشرية .

■ لا بد لإعداد المشاريع التربوية ، من مراعاة توزيع الخريطة الثقافية ، والجغرافية للناس ، وقدراتهم ، واستعداداتهم ، وذلك حتى تصبح تربية اجتماعية ، تطول كل شرائح المجتمع ، ومؤسساته .. فكل شريحة تحتاج إلى فهم معادلتها ، والأسلوب الأمثل في التعامل مع قضاياها ، ومتطلباتها .

■ في ظل الطرح الإسلامي ، يبدو لنا معيار الوحي ، هو المدخل الوحيد لدراسة مشكلات وقضايا الفكر الإسلامي ؛ إذ لا تجدي الطريقة العلمية الحديثة شيئًا ، في استكناه خبايا الظواهر الإسلامية ، ومغازيها الحقيقية ، وأبعادها الجوهرية التي لا يمكن فهمها إلاّ في ضوء معيار الوحي .

(المفكر السيلاني البروفيسور عبد المجيد مكين)



برغوث عبد العزيز بن مبارك

- من مواليد رأس العيون ، ولاية باتنة ، الجزائر .
- دراسات عليا في علوم الوحي والعلوم الإنسانية .
- شارك في العديد من الدراسات المنهجية في الصحف والمجلات .
- عمل محاضرًا في الجامعة الجزائرية في قضايا الاقتصاد والحضارة .
- نشرت له عدة دراسات في مجلات وصحف ، في مجالات : الاقتصاد الإسلامي ، التغيير الاجتماعي ، البناء الحضاري ، الثقافة .. إضافة إلى دراسات أخرى حول أفكار ابن خلدون ، ومالك بن نبي رحمهما الله .

الرقم الدولي (ردمك) : ٣ - ١٣ - ٢٣ - ٩٩٩٢١